راينر ماريا ريلكه

وليمة العائلة



ترجمة: حسين الموزاني

منشورات الجمل



راينر ماريا ريلكه

وليمة العائلة



راينر ماريا ريلكه

وليمة العائلة

مختارات قصصية

ترجمة: حسين الموزاني

منشورات الجمل

ولد حسين الموزاني في العام ١٩٥٤، بناحية «الميمونة» – العمارة. غادر العراق الى لبنان عام ١٩٧٨ ومن ثم الى المانيا سنة ١٩٨٠ حيث يقيم الآن في مدينة مونستر. صدر له عن منشورات الجمل: خريف المدن، قصص (١٩٩٦)؛ اعترافات تاجر اللحوم، رواية (١٩٩٧)؛ روبرت موزيل: ثلاث نساء، قصص (ترجمة، ١٩٩٧)؛ نيكولاس بورن: التزوير، رواية (ترجمة، ١٩٩٨).

راينر ماريا ريلكه: وليمة العائلة،(مختارات قصصية)، ترجمة: حسين الموزاني

تمت ترجمة هذه القصص عن المصدرين التاليين:

Rainer Maria Rilke: Werke in Sechs Bände, Frankfurt am Main 1980
Rainer Maria Rilke: Erzählungen, Frankfurt am Main 1997

Postfach 600501
50685 Köln . Germany
Tel: 0221 736982
Fax: 0221 7326763

ثنائية الألم والاحتفال

حول راينر ماريا ريلكه قاصّاً

لقد عرف الأدب الألماني الحديث راينر ماريا ريلكه (١٨٧٥-١٩٢٦) شاعراً منذ مطلع القرن العشرين، وأصبحت هذه الصفة ملازمةً له، لدرجة أن الشعر الألماني المعاصر برمته قد اقترن باسمه، وبات من الصعب اضافة صفة أخرى الى ريلكه غير صفة الشعر. بيد أن حقيقة الأمر هي أن ريلكه، قبل وأثناء انشغاله بكتابة الشعر، كان قاصاً وناثراً متميزاً، ومازالت كتاباته القصصية والروائية تحظى باهتمام، ولو كان غير متكافىء مع إنجازه النثري، لكنه يتزايد على الدوام.

وقد تكون التلقائية الذهنية الفطرية التي تطبع أحياناً ردود أفعال المعنيين بالأدب والثقافة السبب المباشر، وربما غير المتعمد، وراء اقصاء ريلكه قاصّاً وروائياً، في الوقت الذي ذاعت فيه شهرة مواطنه وابن مدينته (براغ) فرانتس كافكا (١٨٨٣-١٩٢٤) بصفته ناثراً فنياً وقاصّاً في أرجاء العالم كلّه، على الرغم من أن نتاج ريلكه القصصي لايقلّ نوعيةً عن أعمال الكاتب الرائع كافكا.

تناول ريلكه في قصصه المبكرة، وكذلك في روايته «يوميات مالته لاوريدس بريغه»، موضوعات كثيرةً ومتنوعةً؛ إلا أنها كانت، كلها تقريباً، تستند بدرجة رئيسية الى وقائع حياته المضطربة، الواعية والغنية بالتفاصيل. لكنّ مايتميز به أسلوب ريلكه هو ليس فقط استعراضه للوقائع والتجارب الحياتية، إنما الكيفية التي كان يعالج بها الموضوعات الإنسانية الجوهرية، وذلك عبر رؤية فلسفية عميقة وغير قابلة للاندثار، ومنها موضوعات الحبّ والطفولة والحنين والأمل والكراهية والبؤس والعزلة والصداقة والموت. ولعلّ مفردات الحنين والموت والعزلة كانت هي الطاغية على إبداع الكاتب في أعماله المبكرة، إثر تجارب قاسية خاضها في طفولته وصباه (وفاة شقيقته الأكبر سنّاً منه، وخروجه من المدرسة العسكرية وطلاق والديه على سبيل المثال)، بيد أن تلك المعاناة وجدت، نثرياً، ذروتها القصوى في «يوميات

مالته بريغه». وهذا بالتحديد ماأضاف عليها طابع الجدّة والمعاصرة، وجعلها بعيدة تماماً عما هو محليّ وقومي ألماني محض. وثمة ميزة أخرى تنطوي عليها هذه القصص المبكرة التي ترجمنا البعض منها هنا، ألا وهي أن ريلكه المشهور بمراثيه وقصائده وأجوائه السوداوية المفرطة في اليأس والرعب، يمكن أن يتحول أحياناً الى كاتب ساخر متفرد مرّير، تنضح كل عبارة في قصصه الساخرة، مثل «وليمة العائلة» و «إيفالد تراجي»، بالتهكم الذكي والنقد العميق لمفاهيم الوطن والعائلة والقومية واللغة، ولكل ماهو مقدس ومغرق في التقليد. وتعود هذه القدرة التصويرية البارعة الى انشغال ريلكه المركّز بفن العمارة وولعه بالفنون التشكيليه، لاسيما النحت. ولعلنا لانجافي الحقيقة إذا ما قلنا إن ريلكه نحّات يسعي دائماً الى تحويل جمادات العالم الخارجي الى رموز للنفس والعقل، أي أنه يحاكي العالم المستقل عن ذاته بصفته صوراً حيّةً عبر عملية التشيؤ، فيجسده شعرياً ونثرياً على هيئة منحوتات، تيمناً بالنحاتين العظيمين مايكل انجلو وأغسطت رودان. ولكي ينحت ريلكه قصائده وقصصه؛ فإنه يحاول انتزاع الأشياء من طابعها السكوني السلبي وتحويلها الى وحدات ايقاعية وجودية وحسيّة، تعبّر عن الذات المحمولة خارجاً، أي أنه يقوم بعملية تطهير ذاتية مطّردة في محاولة لتخليصها من الأزمات الوجودية والتراكمات الفكرية على نحو فنّي. وريلكه، شأنه شأن الكتّاب جميعاً، مرتبط، على الرغم من فردانيته ونرجسيته وتوحده، بقييم ومعايير الشيء الخارجي المستقل، مثلما يعبّر عن نفسه موضوعياً، حتى لو بدا الشيء متغيراً حسب حالته وطبيعته، لكن ريلكه، وهذا هو العامل الجوهري في شعره ونثره، يمنح ذلك الشيء المستقل الحريةَ التامة، لكي يعبّر عن نفسه بصورة مثالية، ولكي يمنح كذلك الحرية الى نفسه، باعتباره شاعراً، لاعادة صياغة هذا التعبير صياغة فنيّة وموضوعية. وعلى هذا النحو الجدلي؛ فإن العمل الفني ينضج في نفسه أولاً قبل أن يخرج حاملاً سمات الكمال التي تتمتع بها منحوتات مايكل انجلو ورودان.

إن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يعتبر تجاوزاً للذات المبتلية بالمعاناة هو عرض هذه الذات وتجسيدها جمالياً، مثلما فعل نيتشه الذي تأثر به ريلكه في أعماله المبكرة، وهذا مافعله من قبله الفنان أورفيوس، المغني الإلهي الذي

كان يسحر حتى الأموات بغنائه والذي وضع ريلكه سونيتاته المتأخرة (١٩٢٢) باسمه، ليجعل منها شاهدةً على قبر الراقصة الموهوبة فيرا كنوب التي فارقت الحياة ولم تكن قد تجاوزت الثامنة عشرة من عمرها والتي كانت تذكره بشقيقته التي رحلت قبل ولادته، مما جعل ألأم تنظر إلى ريلكه الصغير بصفته تجسيداً حيّاً لشقيقته، حتى أنها كانت تجبره على ارتداء أزياء الفتيات قبل دخوله الى المدرسة.

حملت قصص ريلكه المترجمة هنا ملامح ما كان يسمى بالقلق الوجودي؛ إذ أن ريلكه كان واقعاً آنذاك تحت تأثير نيتشه و كير كيغارد، ولعل الاشارة الصغيرة الى «الأوراق المقفلة في الدولاب» في قصة «إيفالد تراجي» ، جاءت بمثابة محاكاة لما دوّنه كير كيغارد في مطلع كتابه «أمّا وإلا» ، فضلاً عن الكثير من الإشارات والإحالات المباشرة، بل التراجم التي تناولت أعمال هذا الفيلسوف الدنماركي.

لكنّ أعمال ريلكه لم تقتصر على تمثّل الفلسفة الوجودية (صرّح هايدغر ذات مرّة بأن فلسفته هي اعادة تركيب وصياغة لقصائد ريلكه!) ، إنما عالجت أيضاً قضايا إنسانية كبرى: كالدين والسياسة والثورة الاشتراكية والتغيير الاجتماعي. ومن الملامح البارزة التي اتسمت بها أعماله التي وصفها روبرت موزيل بأنها من أعظم ماكتب باللغة الألمانية منذ القرون الوسطى، هو المسعى «الأخلاقي» المتواصل لتحويل الأدب الى دين قائم على الحبّ. والحبّ لدى ريلكه هو تخطي الذات المُحبة وصولاً الى مرحلة متقدمة من مراحل الوجود المُحَب الذي لايضطر الى تزييف ذاته إرضاءً للمحب، إنما يجعل الحبّ نفسه كبيراً وعميقاً في قلبه وعواطفه، ليتعادل مع من يحبه، ويحتفظ في الوقت ذاته بجوهره نقيّاً، رحباً، لايحتاج الى محبة الآخر. فالحبّ إذاً هو الفيض الروحي (استخدم ريلكه عبارة الفيض في قصة «أثناء الحديث») الذي يغمر الآخر، دون أن يطلبه أو أن يكون بحاجة إليه. ويتطلب هذا النمط من الحبّ الإلهي البحث الصارم عن الله في الذات الإنسانية التي تنزع دائماً الى الحلول في الذات المحبة الكبرى، الناضجة والمتخيلة حسيّاً وميتافيزيقياً. وذلك يعني التحرر من القيود الأرضية الاجتماعية كلها، بغية تحقيق دين جديد قوامه الحبّ، ولاشيء غير الحبّ. وحتى عندما يتعرض في قصصه الى عمليه البحث المضنية عن الله والتي

وضع بعضاً منها تحت عنوان «حكايات عن الله العزيز»، وقد اخترنا منها واحدة، «كيف وصلت الخيانة الى روسيا»؛ فإنه يناجي اللّه الخالد المطلق، أو الذات الأبدية. ومما لاشك فيه هو أن ريلكه كان دائب البحث عن المطلق دون أن يفرّط، ولو لمرة واحدة، بالمقدمات الفنيّة والجمالية الضرورية لذلك البحث، بل أنه كان يلجأ أحياناً الى أشد الأساليب إمعاناً في التصوّف، وهو الغور في أعماق الإنسان في لحظات اليأس والاندحار، بحثاً عن آثار اللّه.

وربما كان انعدام الحالة الوسطية في كتاباته، على الرغم من هدوئها وشفافيتها، سبباً في جذريتها وجرأتها التي لاتضع للضمير الفردي أو الأخلاقي أدنى اعتبار؛ لأن الضمير ماهو إلا حالة اجتماعية وتاريخية قد تكون خاطئة أو مشوهة، إنما يغور مباشرة في أعماق الفرد المجهولة؛ الفرد المنعزل المقطوع. ومن هذه الزاوية يمكن فهم موقف الابن «الضال» في قصّة «توحّد» والذي رجع ليموت في أحضان أمّه، لكنه أراد قبل ذلك القضاء على «ربها» المزيّف المذعور في دخيلتها والذي جعلت منه منافساً لابنها وغريماً له.

لقد بلغت نزعة التعرية لدى ريلكه مداها الأقصى في اقدامه على هتك أستار وأكاذيب أبطاله وشخوصه عبر تعريته للواقع الاجتماعي والتاريخي، أو للطبيعة والبيئة المحيطة بهم، بل أنه عمد أحياناً الى انتزاع ملامح الوجه وبقسوة تامة، بغية تحويله الى قناع مشوه، مثلما فعل في «مالته بريغه» و «حفّار القبور».

حسين الموزاني

حظّ أبيض

استقل موظف التأمين تيودور فنك القطار من فيينا قاصداً الريفيرا. اكتشف في الطريق، وهو يقلب ملزمته اليدوية، بأنه سيصل الى فيرونا في منتصف الليل وعليه أن يتنظر هناك ساعتين قبل مواصلة الرحلة. لم يكن من شأن هذا الاكتشاف أن يساهم في تحسين مزاجه، فأشعل سيجارة، لكنه شعر بدخانها يضايقه، فأخذ يطرده من النافذة بخفقات كفّ واسعة. كانت نظراته تتعقب النقطة المتوهجة في تضاريس شهر آذار الشاحبة الخالية من الإثارة، حيث رقدت بقايا الثلوج في الوديان العميقة مثل وسائد قذرة. بعثت تلك المشاهد في نفسه الملل وكذلك الرواية الصفراء الغلاف الملقاة الى جانبه على المقعد؛ تناول للمرة العاشرة الرسالة التي كتبها شقيقه المريض في نيس، وكلما تمعن في سطورها القلقة النزقة بدا له واضحاً، أنه جاء يلبي نداء شخص محتضر. كما أنه لم يشعر يوماً بودّ كبير مع شقيقه الصغير الذي ولد بعده بسبعة أعوام؛ لأن توعكه المستمر وهشاشته طالما أثارا النفور في نفسه وبدت له حساسية شقيقه المفرطة مخيفةً وشديدة الغرابة. انتابه احساس بالخوف من الأيام المقبلة باضطراباتها ومتاعبها العديدة، وشعر أيضاً بشفقة صادقة في الوقت ذاته، مع أنه حاول في الحقيقة التخفيف من وطأتها عبر تفكيره المتناوب في أن شقيقه: «سيكون محظوظاً بلاشك، طالما كان مريضاً.» ثم غفا إثر هذه الخاطرة.

نزل من القطار بمفرده في محطة «فيرونا فيجيّا» وهو في حالة نعاس شديدة، مرضوض العظام ومفاصله تؤلمه، وتبع البوّاب الصامت الى

قاعة الإنتظار المخصصة لركاب الدرجة الثانية، حيث تركه وحيداً أمام الأبواب الزجاجية العالية. دفع تيودور فنك مصراع الباب بمرفقه وانتظر في العتمة حتى ألفت عيناه ظلمة المكان. وشيئاً فشيئاً تعرف على الأبواب المقوسة التي تؤدي الى الرصيف المقابل. كان هناك شيء خرافي المظهر محدودب، يستقر بضخامة على أربع قوائم وسط القاعة. في الأخير لمح فنك مصاطب اصطفت بمحاذاة الجدران، فجرجر نفسه بتثاقل نحو أول مصطبة، ليواصل نومه المتقطع. تحسس المصطبة بيده، وحالما أحنى ظهره مرق أحد ما في الخارج حاملاً سراجاً، فانعكس بصيص مرتجف من النور داخل القاعة، وكشف على نحو عابر عن وجه رجل ملتح يغط في النوم. شعر فنك بالصحو دفعة واحدة وأطلق لعنة، فتردد صوته عالياً في القاعة أكثر مما توقع، فجاءه ما يشبه الردّ من جميع الزوايا: زفرات وتمطّ وصرير مصطبة وكلمات حلم شاردة خالية من الصوت. بقي فنك لحظة مأخوذاً؛ إذ لمح الكثير من الناس الذين كانوا يرقدون هناك، فخطا بحاذاة المصاطب، وبالقرب من زاوية معتمة تحسس مقعداً فارغاً، فقذف نفسه فيه كالمرهق. ظل جالساً متصالباً، عاجزاً حتى عن مدّ ساقيه. كان مقتنعاً بأن الناس كانوا يضطجعون الى يمينه وشماله، فخشي أن يحتك بهم. كان جفناه ثقيلين ينطبقان ببطء، لكنه سرعان مافتحهما بعد لحظة قصيرة كما لو أن ذعراً مباغتاً اجتاحه، محاولاً أن يتآلف من جديد مع المكان غير المضياف الذي كانت الأضواء تتراقص، بين الحين والآخر، في ممراته وأروقته كالنوارس.

سحب فنك نفساً عميقاً عندما صرّ الباب الذي كان قد دخل منه وتطاول شبحان أو ثلاثة في عتمة الممر الحمراء الكابية. لقد دخل مسافرون جدد الى القاعة، فانطبق الباب وراءهم، فأجهد فنك بصره ليتعقب الأشباح؛ إلا أنهم انفصلوا عن بعضهم بصمت وسط الظلام

الثقيل، ولم يبق سوى صرير الأرائك ينبىء عن أنهم قد ألقوا بأنفسهم في مكان ما، فغرقت القاعة في الصمت من جديد. كان فنك وحده يلتقط مئات الأصوات بفعل توتره وحالة الارهاق التي أصابته، فأخذ يتعقب مصدرها، شاعراً بأن كل حرف منها انطوى على قدر من الغرابة والعدوانية. تخيّل الناس وهم يتدافعون مقتربين منه على الدوام، لدرجة أنه شعر بالظلام من حوله وقد اتخذ شكلاً مجسّداً، فأشعل بوجل وقلق عود ثقّاب. تنفس بارتياح بعدما أبصر أمامه دائرة الظلمة الواسعة السوداء، ومع ذلك أشعل عود ثقاب آخر، ليزداد إطمئناناً. وحالما تأرجح لهب الثقاب بأزيزه الخافت، ارتفع صوت ما من الزواية قائلاً: «إنه يخطف الأبصار– معذرة.»

فأرهف فنك سمعه لنبرة الصوت العذبة الخفيفة، ورفع العود الموشك على الاحتراق بتلقائية تامة بحثاً عنه، واعتقد، دون أن يتأكد، بأنه لمح وجه امرأة ملتفعة بنقاب كثيف. ثم انطفأ النور وبقي فنك قابعاً في الظلام ينتظر الصوت الذي جاء فعلاً: «من المرعب تمضية الليل مع أناس غرباء في قاعة واحدة. أليس كذلك؟ إن الناس في الليل غريبو الأطوار؛ إذ أن أسرارهم تنمو أكثر من قدرتهم على الاحتفاظ بها وتحملها. إن هذا لأمر مرعب حقّاً– لكن الضوء يخطف الأبصار فعلاً.»

شعر فنك بأن الصوت الناعم الرقيق قد نطق بما كان يخيفه. بيد أن العبارة الأخيرة، التي كان لها وقع الاعتذار، أزالت عنه هاجس الرعب، فأدرك أنها لابد أن تكون فتاة شابة، وربما جميلة أيضاً، هذه التي جلست مباشرة الى جانبه، وجعلته امكانية اختصار ساعات الإنتظار بمغامرة صغيرة متوتراً متحفزاً.

فتل شاربه بحركة لاإرادية وانحنى بأدب صوب الزواية المظلمة: «سيدتي، هل ستقلين القطار الهابط الى نيس؟»

«كلا؛ إنما سأعود الى بلدي.»

«في آذار؟ إن الجو بارد جداً في المانيا. لعلّ اقامتك هناك لم تكن بسبب المرض؟»

«أوه. إنني مريضة.» نطقت العبارة بحزن، لكن بقناعة ورضى أيضاً.

صمت فنك مندهشاً حائراً، وبدأت عيناه تفتش في الظلام دون أن تعثر على شيء. كان الهواء مشبعاً بالضباب سميكاً ثقيلاً؛ ومن حلم ما انطلقت زفرة، ثم قُرع جرس في الخارج له صوت الصرصار. ولكي يردّ فنك عليها بعبارة ما قال: «إنني لست مريضاً، لكن حالة شقيقي أصبحت سيئة في نيس. وهذا هو سبب سفري الى هناك.»

فجاءه صوت من الظلام: «أوه! يجب أن ترجعه معك، حتى لو كانت حالته سيئة؛ لأن كل شيء هناك يبدو حزيناً في الربيع المبكر، الحياة والممات...»

بدرت عن فنك حركة ما، فقالت المرأة بصوت مطموس النبرات: «يجب أن يبقى المرضى والمتعبون في بيوتهم.»

فأخذ يفكّر: لابد أنها فتاة شابة، وبعدما ردّ عليها بالقول: «لكن يجب أن تحسبي حساب المناخ، ياآنسة...»، شعر فوراً بالحماقة وانعدام المرونة.

يبدو أنها لم تصغ إليه؛ لأنها واصلت كلامها: «سأعود الى بيتي، لقد كنت حزينة تماماً، سواءً في وحدتي أو بين الزهور.»

«بلاشك إنك فتاة في مقتبل العمر، ياآنسة»، لكنها قاطعت فنك الذي شعر بالاستياء، قائلة ببساطة:

«أجل؛ إنني فتاة شابة.» فهجس فنك أنها كانت تبتسم. «لكنني سعيدة بوحدتي لهذا السبب بالذات. إنني دائماً ماأكون وحيدة في البيت أيضاً!»

أثناء ذلك حضّر تيودور فنك سؤالاً جديداً: «أين تقع بلدتك؟»

إلا أنه لم يستطع طرحه؛ لأنها تابعت حديثها، فأخذ صوتها يزداد نعومة وعذوبة كما لو أنه كان ينبعث من مكان ناء، وبدأت تحلم: «إن لي غرفة بيضاء، فتأمل! إن جدرانها بيضاء، ذات نور ساطع، لدرجة أن جذاذة من الشمس تبقى عالقة بها أبداً حتى لو كان النهار رمادياً معتماً في الخارج؛ إذ أن ثمة نهارات رمادية كثيرة في الخارج. لكن غرفتي دائماً ماتكون مضاءة، وتكون الستائر الشفافة البيضاء مردودة على الشبابيك، وتستقر خلفها الزهور البيضاء والبراعم الصغيرة التي لاتتفتح الى الحد الأقصى والتي لم يكن عطرها نفاذاً؛ إلا أن الأشياء كلهاتتضمخ بعطرها: وسادتي ومنديلي وكتبي المحببة الى نفسي. وفي كل صباح تأتي الممرضة أغاثا وتبتسم لي. إنها تبتسم كلما تزورني، وتجلس على فراشي بقلنسوتها الكنسية. ليديها ملمس أشبه بملمس وريقات الزهور. وهي لاتفقه شيئاً عن العالم، وكذلك أنا، ولهذا فأننا نتفهم بعضنا. وحين تهبنا الشمس دفئاً نادراً في بعض المرات، نجلس عند الشباك ونتطلع الى الخارج، فيبدو كل شيء أمامنا بعيداً بكل صخبه وسعته: البحر والغابة والقرية والناس. في الآحاد عندما تقرع النواقيس نتخيّل ذلك مثل ذكرى. حينئذ يطرق بابي الناس الطيبون الذين أعرفهم منذ أعوام طويلة، فيدخلون إليّ كما لو أنهم يدخلون الى كنيسة، يسيرون على أطراف أصابعهم، حاملين الزهور، ويرفلون بثياب إحتفالية. . .

ثم حلّ الصمت، وحتى الجرس في الخارج قد توقف عن الرنين، فحدق تيودور فنك في الظلمة منتظراً الصوت؛ وشعر: (لابد أنها ستواصل الحديث بالصوت الفضّي العذب ذاته، وستروي لي كل شيء. يبدو أن حديثها مجرد اعتراف بالذنب، لذلك فأنني لم أستطع فهمها. ربما سيصغي لها أحد من هؤلاء الغرباء الكثيرين المتربعين على المصاطب ويفقه ماتقول. لكنني لاأستطيع فهمها، بل صرت أخاف منها.)

في تلك اللحظة نهض تيودور فنك خلسةً، دون أن تبعث المصطبة صريراً، متلمساً طريقه الى باب القاعة الذي أطبقه وراءه بحذر شديد، وحثّ خطاه كالطريد بين الدهاليز المعتمة الكابية النور في اتجاه البوابة الخارجية، مروراً بحرّاس المحطة النائمين. أخيراً عثر على البوابة العالية. لم يكن يعلم حينئذ بأنه سار في الشارع المغروس باشجار الزيزفون والذي كان يؤدي الى قلب المدينة، مردداً شعوره الداخلي: «إنني لأستطيع فهمها.» —ولم ينتبه الى نفسه إلا بعد أن مرقت أمامه عربة بريد مبكرة في اتجاه المحطة، فوقف ورفع قبعته تحيةً.

وبدأت رياح الفجر تعبث بأغصان الزيزفون العجفاء على نحو خافت وتنثر على جبهته نوارات صغيرة باردة. —

وليمة العائلة

هبط القسيس درجات المذبح الأربع في كنيسة ماريا-شني، بعد القداس، والتفت الى الوراء ثم قرفص خلف العازل الخشبي الذي كان يفصل جوقة المنشدين عن صحن الكنيسة، وأخذ يفتش في مسوحه الرسمي ذي الثنيات الكثيرة عن منديل ليمخط فيه بخشوع قبل أن يعزف لحناً صغيراً على الأرغن ويبدأ بالقول: «دعونا نصلّي على روح السيد أنتون فون فيك، عضو المجلس الاستشاري القيصري، الذي انتقل الى جوار ربه. ياإلهي ارحم عبدك المخلص الأمين أنطونيوس. . . »

ثم نهض من مصطبة الصلاة الأولى السيد ستانسلاوس فون فيك، شقيق المرحوم «المخلص الأمين أنطونيوس» الذي رحل منذ ثمانية أعوام، وأفرغ حزنه وتأثره عبر المخاط. وعندما انتهى القداس الروحي، تقدم السيد ستانسلاوس الى الأمام بصفته ربّ العائلة، وتحررت بعض النسوة المتشحات بالسواد من المقاعد الخشبية الداكنة اللون. وفي الطريق الى الدار ناول يده الى شقيقته الكبرى زوجة الرائد رشتر، فتبعهما الآخرون أزواجاً. لم ينطق أحدهم بحرف، وكانت عيونهم مصابة بحساسية النفور من الضوء، فبدت دامعة وهم يتثاءبون من شدة الجوع والضجر.

كان على العائلة أن تحضر الوليمة التي أقامتها ابنة المرحوم أنتون، السيدة إرينه، أرملة هورن، المولودة بلقب فون فيك، بينما كانت السيدة حرم الرائد تخطو على الدوام، بايقاع متعجل، متعارضاً تماماً مع بدانة جسمها ومتناسباً تناسباً سيئاً مع حذلقة مشية التشييع المجهدة التي التزم بها أخوها المتشنج الأطراف. لاحظ السيد ستانسلاوس هذا السعي الحسي-الدنيوي، فقال كما لو أنه كان

يحذرها ويذكرها: «ياأيها المسكين أنتون.» فلم تفعل زوجة الرائد سوى أن هزّت رأسها، فدفع السيد فون فيك كتفيه الضيقتين الى الأعلى عدة مرات، واصطنع وجهاً قلقاً منصتاً. أخذ يبالغ في حركته تلك، وأعادها بتشديد ظاهر أمام العائلة كلها التي وصلت الى مدخل المنزل، وهنا سألته السيدة إرينه بعصبية: «ماذا حلّ بك، ياعم؟»

حشّد السيد فون فيك قدراً لابأس به من الطاعة والخشوع في وجهه المذعور أول الأمر ثم زفر وهو يتابع حركته الخائفة المتسرعة: «إنني متشنج تماماً– ربما أصابني البرد في الكنيسة.» فاكتفت السيدة إرينه بهزّ رأسها؛ في حين لثغت شقيقتها فريدريكه بنبرة احباط شديدة التأثر: «وأنا أيضاً.»

والتحقت بهم الفتاة الفرنسية، بصحبة ابن الأرملة هورن ذي الوجه الأصفر والأعوام السبعة، فتحسست فريدريكه الشاحبة جبهته برقّة، وفكّرت في «أنه شاحب تماماً، لاحه البرد أيضاً.» وهمست الى شقيقها أثناء ماكانوا يصعدون السلّم في البيت المظلم: «أن أوسفالد يسعل.»

حالما تحلقت العائلة حول مائدة الطعام نسي كل واحد من أفرادها مرضه الذي جلبه معه من القداس تواً. اتخذ السيد ستانسلاوس فون فيك مقعداً بين شقيقته وفريدريكه. بدا وكأن تمرينات الكتف المسرفة، التي قام بها السيد الوقور قبل فترة، قد عُوضت وتعادلت من خلال تصلب جديد جاء من العصر الوثني. أخذ ينظر عبر رأس المرأة التي جلست قبالة العانس أوغسطه، أي العمّة القائمة على إدارة البيت بهمّة لاتعرف الكلل، والتي لايعرف أحد على وجه الدقة درجة قرابتها من العائلة– أخذ ينظر الى زواية غرفة الطعام المعتمة، حيث أطلّ كرسيان عاليان مكسوان بقماش من القطن على طاولة صغيرة. بدا السيد فون فيك منشغلاً في تلك اللحظة بشكل يصعب على الوصف،

مثلما كان يفعل في مكتبه الخاص، عندما ينهمك في قراءة الجرائد ويزعجه أحد ما. بعد حين دخلت السكين بين أصابعه بالحاح، مثلما تدخل ريشة الكتابة، منتظرةً أن يضع توقيعه الناعم المظفور والمرتعش كارتعاش العشب (ستانسلاوس فون فيك) على ملف أفكاره الآنية.

كان جميع من أحاط به على علم بهذه اللحظة الفائقة الأهمية التي كان يتنظرها بانفاس متقطعة. والآن بدأ الصبي أوسفالد الصغير يحتسي الشوربة بعجلة، وأوغسطة التى اعتادت أن تأكل حتى التخمة، قبل المناسبة وبعدها بثلاثة أيام، كانت منشغلةً بوضع حدّ للمعضلة القائمة على التحدث بمقدار ماتلتهم من زاد. كانت تجعل من كلماتها مظلّة واقية فوق طبقها المليء بالأطعمة، حيث تتسابق مخيلتها ومعدتها هضماً للفوز بالجائزة. وليس من النادر أن يجعلها هذا الانشغال المعقد ساخنة، فتضطر الى التوقف عن كلا النشاطين آجلاً أم عاجلاً.

أثناء إستراحة كهذه، كان السيد فون فيك يستعيد عينيه من الكرسيين العاليين ويتيح لهما فرصة التريّض قليلاً على جبين العمة أوغسطه المليء بالظلال، ليرسلهما فيما بعد الى ربّة البيت باهتمام خاص. استلمت أرملة هورن التي كانت تشعر بانتمائها الى آل (فيك)، مهد ولادتها، أكثر من انتمائها الى عائلة زوجها، بشائرَ ورسل عمها بفرح غامر في ظلّ الصمت المطبق على الجالسين. وأمسكت بسكين الفاكهة القصيرة، ورفعتها بصعوبة حتى حافة كأس النبيذ الذي نقش عليه حرف W متوّج ونقرته مرة واحدة، فأحدثت هذه العلة الصغيرة قدراً كبيراً من المعلولات الحاسمة؛ إذ تخلت الأسلحة بمختلف أنواعها عن الصليل المتعجل، المبهج منه وغير المبهج، وانكشفت مناشف السفرة من الأحضان المتنوعة مثل رايات برلمانية تعلن ايقاف القتال وترفرف للسلم. انتزعت المربية

الفرنسية ذات العينين الأرنبيتين الملعقة من يد الصبي، فنفخ بها:
«Que veux-tu؟»

بيد أن المدموزيل همست برعب فظيع: «Fais attention!»

وبفعل هذا اللغط ضاعت أولى عبارات السيد ستانسلاوس دون أن تخلف أثراً، فمطّ عنقه الى الأعلى وضغط على ربطته، لكي يوقظ هذا الذي رقد في حنجرته من سباته. كانت عيناه الخاليتان من اللون تبحثان عن الكرسيين ذوي المساند. «هناك»، قال وانتظر حتى انصاعت الأبصار كلها لأمره، ثم أضاف «لفظ شقيقي المسكين المغفور له أنتون أنفاسه الأخيرة قبل ثمانية أعوام. كانت كلماته الأخيرة قد تركزت على سعادة عائلتنا. لقد أبلغني في اليوم الذي سبق رحيله: بأن عليكم أن تتحملوا بعضكم بعضاً وتتعانوا فيما بينكم. وها نحن اليوم نحيي الذكرى الثامنة لوفاته، مثلما كان يتمنى. وإذا ما وهبنا اللّه العزة والقوة للاحتفال بذكراه أعواماً كثيرةً، ونحن في كامل الصحة وخلو البال؛ فإننا سنكون واثقين من أن روح شقيقنا، أو المرحوم والدكم»، التفت صوب ربّة البيت وفريدريكه عندما نطق بهذه العبارة، «أو جدكّم»، ثم استقرت عيناه المتأثرتان على أوسفالد الذي كان يلعق فتات الخبز بأصابعه المبللة بهدوء وخفية، «ستخفق فوقنا بالخير والبركة.» ثم جلس السيد ستانسلاوس مرهقاً من فرط الجهد والتأثر، وبرغم ذلك؛ فإنه لم ينس أن يطوي بعناية أذيال سترته السوداء الطويلة. كان قد القى هذه الخطبة نفسها تقريباً في اليوم الأول لرحيل شقيقه، ومنذ ذلك الوقت؛ فإنه لم يغيّر فيها سوى أرقام الأعوام التي أعقبت الوفاة. بيد أن الكلمات ظلت محتفظة بشيء من الطراوة والجدّة؛ لأنها لم تستخدم إلا مرة واحدة في العام، ويبدو أن السيد فون فيلك نفسه كان ينفض الغبار عن كل كلمة منها ويقوّم اعوجاجها في فمه قبل أن يطلقها.

وعندما التقت الكؤوس كلها وحيّت بعضها البعض بتحفّظ يليق بالمقام، قالت فريدريكه الشاحبة الوجه وهي تتنحنح بحدّة: «هل توفي والدي في هذا الكرسي أو في ذاك الآخر؟» وقذفت الزاوية، حيث الطاولة الصغيرة، بنظرة انطلقت من عينين نصف مغمضتين. رأت ربّة البيت أن هذا السؤال لم يكن مناسباً، فهزّت منكبيها استهجاناً؛ وبما أن السيد فون فيك كان غارقاً في حزنه وزوجة الرائد تلوك بخدين منتفخين فقد تحتمت الاجابة على العمة أوغسطه التي لم تتردد كثيراً، إنما مررت يدها على مفرق شعرها الذي وخطه الشيب كما لو أنها أرادت أن توقظ جزءاً من ذكرياتها، ثم قالت بحسم بطولي: «في هذا الكرسي.» لقد حاولت من خلال هذه المعرفة الدقيقة والتبجيلية البرهنةَ والتشديد على انتمائها العائلي الذي كان يشوبه الغموض. والآن حدث الكثير من اللغط، وأحاط الحاضرون كلهم بالكرسيين يحدقون فيهما بتمعن، ثم تقدم السيد فون فيك وحشر نفسه خلف المسندين وتحسس ظهريهما، وأعلن الخبر اليقين أمام المنتظرين المتوترين: «في الكرسي الذي ينقصه (برغي)، وهذا الكرسي هنا قد سقط قلاووظه، وعليه يكون شقيقي أنتون قد فارق الحياة في هذا الكرسي ذي المسند.» بقي الجميع ينتظر فترة طويلة لعلّ الكرسي نفسه ينطق بكلمة. لكن الكرسي ظلّ صامتاً، متمسكاً بهدوئه الحيادي، فرجع أفراد العائلة كلهم الى مقاعدهم.

«هناك، فوق الأريكة الصفراء ماتت الجدة»، أكدت فريدريكه المتنحنحة. وأخذوا يستعرضون، فيما بينهم، قطعَ الأثاث التي بقيت فيها الهيئة البدنية لأحد أبناء أو بنات فون فيك هاجعة، بينما كانت الروح قد غادرت، لتبحث عن آل فيك في عالم الآخرة. وهؤلاء لم يكونوا قليلين، بل كانوا ينظرون الى أيّ كرسي لم يتوفى فيه أحد من آل فيك باعتباره وصمة عار لاتمحى. وهذا بالضبط ماشعر به الكرسي ذو

المسند والذي كان مكسواً بقماش القطن والمجاور لوسادة وفاة السيد أنتون.

بدت فترة الصمت طويلةً الى حد ما، فتركت ربّة البيت إصبعها يهبط على الزرّ الكهربائي. وبينما كان الآخرون يواصلون تعداد قطع الأثاث و (الكلمات الأخيرة)، وفريدريكه مستغرقة وعلى وجهها ابتسامة باهتة، كعادتها في كل مناسبة مشابهة لهذه، قائلة إن الجدة الكبيرة لفظت أخر كلماتها باللغة الفرنسية؛ في تلك اللحظة بالذات دخل (يوحان) العجوز الذي كان ينتمي تحت هذا الاسم الى الحضور العائلي الثابت منذ أزمان سحيقة؛ دخل محافظاً على توازنه وهو يخطو على الأرضية الخشبية الصقيلة، حاملاً شرائح لحم الغزال. كان (يوحان العجوز) في الواقع قد سُرِّح من الخدمة منذ وقت طويل، ومنح رواتب تقاعدية مختلفة من قبل أجيال متنوعة تابعة لعائلة فون فيك، وأصبح لايقوم بالخدمة إلا في حالات نادرة واستثنائية، تقتضيها الاحتفالات بذكرى الوفيات ذات الأهمية الخاصة. كان يرتدي بذلة خدم عتيقة ناصلة اللون، بازرار فضّية، نقش عليها شعار ما، إضافة الى عبارة (constantia et fidelitas)، داساً يديه المعوجة المصابة بداء المفاصل في قفازات بيضاء من القماش الخفيف، فبدا في بذلته وكأنه هيكل عظمي متنكر. زحزح يوحان نفسه كالورقة الجافة حتى نهاية المائدة، ملتصقاً بالسيدة إرينه أرملة هورن. في البدء، كان على عينيه نصف العمياوين، أن تألفا العتمة المنتشرة في صالة الطعام، فكان يحمل صحيفة الطبيخ في اتجاه شخص ما، محتمل الوجود، معتمداً على شعوره المجرد وحده. دحرجت السيدة إرينه شريحة لحم صغيرة في صحنها بجهد بالغ وتناولت حبات الرز كما تتناول البركة من يدي العجوز المرتعشتين اللتين تناول منهما المرحوم أبوها والمرحوم جدها شرائحهما، ثم انحنت أمام القفازين الخفيفين باحترام، بينما وقف

يوحان العجوز يتطلع، من (منظور الطير المحلّق)، الى السدارة البنفسجية على رأس زوجة الرائد رشتر التي كانت تتفحص صحيفة الطعام بوعي عميق. بدأ الخادم العجوز يظهر اهتماماً كبيراً ليعرف من هي هذه المرأة صاحبة السدارة الجالسة أسفله، وأمعن التفكير لحظة قبل أن تداخله القناعة بأن القلنسوة الليلكية لابد أن تكون عائدة الى السيدة المصونة كارلوينه فون فيك، حرم المغفور له الجدّ بيتر. انحنى يوحان بتواضع جمّ ليحيي السيدة ذات الأعوام المئة والتي كان قد قدم لها، آخر مرّة، لحم الغزال المشوي قبل أكثر من ثلاثين عاماً. بلا شكّ أن الألف عام كانت تبدو يوماً واحداً بنظر الخادم المسنّ، وكان أيضاً سعيداً للغاية؛ لأنه عثر في شخص السيد ستانسلاوس فون فيك على بيتر شخصياً الذي رآه لتوّه يتمتع بصحة جيدة، على الرغم من تقدمه الكبير في السنّ. وعند كل خطوة جديدة أصبح يتعرف على أحد أفراد العائلة من أيام الجد العتيد، وفقدت الدهشة معناها كله عندما القى التحية على الصغير أوسفالد بصفته التجسيد الطفولي للعم ستانسلاوس. حينئذ اتخذ تأرجح صينية مشوياته قدراً من الحنان والتملق وهو يسندها الى المرفق المدبب للصبي. كانت معظم الأنظار تتابع حركات العجوز باهتمام وقلق متزايدين؛ إذ أن يوحان كان يشكل ظاهرة فريدة، جديرة بالرؤية والتأمل، فضلاً عن أنه كان يمثل خلاصة دنيوية لما خلفه آل فون فيك المرحومين من تركات على هذه الأرض.

استطاع يوحان تغيير مائدة أمواته الأعزاء بقدمين مترنحتين، إلا أنه أظهر شيئاً من التردد أمام الفرنسية؛ لأنه لم يعثر في ذهنه على مقعد مناسب يمكن أن تشغله هذه الشخصية ذات العينين الحمراوين، فعزّى نفسه بضعف ذاكرته، واكتفى بابعاد طبق الشواء من أمام الآنسة، قبل أن تشبع رغبتها منه. التفتت الفرنسية حول نفسها

بدهشة، لكنها تجنبت أي تصرف قد يلفت الإنتباه إليها، فخاطبت أوسفالد : Bubi, tu as trop وتناولت بهدوء تام قطعة لحم من طبق الصبي الذي خزر اللقمة الشهية بطرف عينه، حزناً وخجلاً في آن . في تلك الأثناء كانت العمّة أوغسطه تروي الأقاويل العديمة القيمة التي كانت ترددها المدينة، وكان نادراً ما يتدخل أحد آخر، ليضيف اليها كلمة وكأنه يعطي صدقة. حسبت ربّة البيت أن هذه الثرثرة الدنيوية تعبّر عن قلّة ذوق في يوم كهذا، وقد ابلغت رأيها الى زوجة الرائد التي هزّت رأسها بالموافقة، مما جعلها تقبل على التهام شرائح لحم الغزال بشهية حقيقية. لم تصغ فريدريكه الى ثرثرة العمّة ذات المعرفة الواسعة، إنما طلبت من الفرنسية أن تحدثها للمرة الحادية عشرة عن رغبتها في دخول دير الراهبات ذات يوم. ومافتئت فريدريكه تجد في هذه الحكاية متعة كبيرة، فأرادت هذه المرة أيضاً أن تعرف، ومن خلال تفاصيل القصة نفسها، الأسباب التي دفعت بهذه الفتاة الباريسية المصابة بفقر الدم الى الإقدام يوماً على تلك الخطوة اليائسة. إلا أنها قُوطعت هذه المرة في منتصف الحكاية عبر صوت العم ستانسلاوس الذي أخذ يرتفع باستمرار. وفي آخر المطاف رأى السيد فون فيك نفسه مضطراً الى جذب الخادم الأمين من أذيال سترته، ليهمس في أذنه بعجرفة لطيفة: «ها؟ إننا لانشيخ أبداً، ياعزيزي يوحان الطيب.» لكن يوحان لم يستطع الإجابة؛ لأنه بدا شديد التأثر برأفة الجدّ السيد بيتر فون فيك ورقته، ولأن سمعه الثقيل لم يتح له فهم كلمة واحدة من تلك الخطبة الطويلة. أعاد السيد ستانسلاوس سؤاله بنزق، لكن السؤال ظلّ غير مفهوم، فأدرك السيد فون فيك، الذي كان يحب عادة أن يحسم الأمور بيسر وسهولة، أن هذه المسألة الثانوية قد استغرقت الكثير من الوقت، فزعق بالعجوز:

«نا؟ يوحان- كيف حالك؟»

حينئذ انتبه الحاضرون كلهم، وأرهفوا السمع، حتى أن فريدريكه نفسها صمتت، وكذلك الفرنسية والعمة أوغسطه وأوسفالد الصغير الذي نسي الشوكة المليئة بالطعام في الطريق الى فمه من فرط الدهشة. فهم يوحان السؤال هذه المرة، فحنى قامته باحترام وطاعة، على طريقة الخدم المسنّين، أمام الرأس الأشيب الناعم للسيد ستانسلاوس فون فيك وقال: «ياله من فيض من الرحمة والبركة- ياحضرة السيد بيتر.»

كان يوحان يخاطب دائماً الجدّ بيتر بهذا الاسم زماناً، على العكس من أشقائه المتواجدين آنذاك في المنزل، فجاءت كلماته الآن مفككة كما لو أنه كان يبحث عن كل مفردة منها بمشقة، فبدا كلامه بالنسبة الى فريدريكه المتوعكة الصحة وكأنه ساعة قديمة مهملة، غير مؤقتة، بدأت فجأة بالرنين في مكان ما. بقي يوحان العجوز واقفاً لحظة أمام السيد «بيتر» متردداً، مما جعل وقع الاسم يصبح أشد غرابةً ولفتاً للأنظار وسط الانتباه الشامل. ارتعد السيد ستانسلاوس وانطفأت إبتسامته الطيبة بين ثنايا ملامحه، وشعر بالنظرات كلها مركزة عليه وحده، كما أحسّ بنفسه شائخاً، عاجزاً دفعة واحدة؛ لأنه لمح في تلك النظرات ماأدركه هو نفسه بغموض: الرعب والفزع. أخذ يتفحص الجالسين واحداً تلو الآخر، خائفاً من أن يقرأ على شفة ما عبارة: «السيد بيتر»؛ إلا انهم كانوا قد آثروا الصمت. قلب السيد عينيه الى الوراء بخجل وخاطب نفسه بكل ماأوتي به من قوّة: لقد أصبح العجوز مخرفاً.

لكن لم يكن هناك من يؤيده في هذا الرأي، فسرح السيد ستانسلاوس بيده مرات عديدة يتحسس جبهته الضيقة.

«ماذا بكَ؟ ستانسلاوس؟» قالت زوجة الرائد التي كانت ساذجة بعض الشيء. «لاشيء، يا كارولين»، ردّ عليها السيد ستانسلاوس

بصوت مطموس المخارج، ثم وضع منديل السفرة بهمّة يشوبها التشنج الى جانب الصحن، ونهض مستعيناً بذراعيه، اللتين أسندهما الى طرف المائدة، واتجه بخطى مضطربة قلقة نحو الزاوية المعتمة، حيث انتصب الكرسيان الى جانب المنضدة الصغيرة، وارتمى مرهقاً في الكرسي الذي لم يمت فيه أحد من آل فيك حتى ذلك اليوم.

انطوى تصرفه هذا على قدر كبير من الشعور بالعدالة، بيد أن السيدة إرينه، أرملة هورن، وحدها قد أطلقت تعليقاً: «ياعم؟»

لكن السيد فون فيك رسم بيده علامة النفي على نحو هادىء؛ إذ لم يشأ أن يزعجه أحد. لقد كان على علم تام بأن هذا الكرسي هو آخر كرسيّ بمسند يجلس فيه، هذا اليوم أو في الغد، لكن الشكّ مازال يساوره فيما يتعلق بكلمته الأخيرة.

الصوت

كان الدكتور هنكه نموذجاً للالتزام الشديد بالواجب في المدينة كلها، غير أنه أمضى أسابيع إجازته الستة، مستلقياً على ظهره بكسل «بطوليّ» على شاطىء الاستجمام الأبيض في ناحية مسدروي الواقعة على البحر الشرقي، ويحلم. كان يضع يديه تحت رأسه القصير الشعر كوسادة، ويتطلع الى قمم أشجار الزان السامقة. كان منزعجاً من صاحبه أرفن الذي وقف أمامه عند الشاطىء، ويرمي الحجر وسط الأمواج المتدافعة؛ لأنه أراد أن يلقي على أرفن الخطبة التالية: «إنك حقاً لحمار. عليك أن تريح نفسك هنا وتستجم، لا أن تمارس هذه الحماقات. لايمكنني أبداً أن أفقه معنى ذلك. (الصوت)؟! فهل سمع أحد بهذا الشيء من قبل؟ إنك تنتمي الى أولئك الذين يجب أدخالهم الى عش الزوجية بأي ثمن. يالهذا الكلام العجيب الذي سمعته خلال هذه الأيام. أقول لك: لم يكن دفاعي عن لصّين وقاتل ارتكب جريمة السطو المسلح، ولا حتى مساهمتي في فضّ تركة امرأة عجوز توفيت دون أن تكتب وصيتها الأخيرة، أصعب من دحض ترهاتك وأقاويلك الفارغة كلها– إنك متعب مرهق بلاشك.»

ابتسم أرفن وهو يحدق في الأمواج: «ربما أنت على حقّ. إنني مرهق تماماً. لهذا السبب بالذات تراني أحنّ الى الصوت. أسترخي هكذا في مقعد وثير وأترك الصوت العذب يحدثني عن الحياة، وكيف هي، هذه الحياة، فأجد نفسي متصالحاً معها عبر هذا الصوت العذب، مستحوذاً على كل شيء فيها من جديد، وبحبّ شديد: إبتداءً بأحداثها الصغيرة، وانتهاءً بمعجزاتها العظيمة.»

رفع الدكتور هنكه رأسه باحثاً عن عينيّ صاحبه، وخطر في ذهنه،

برغم عدم فهمه للشعر، مامعناه أن هاتين العينين، بعمقهما المتغير على الداوم وبريقهما الكامن المباغت، تحملان بعضاً من جوهر البحر.
ثم ابتسم متهكماً قبل أن يدوّي صوته في سخط: «قلْ لي بحق كل ماهو موجود في هذا الكون، هل رجعت الى فكرتك القديمة مرة أخرى؟»

سرّح أرفن شعره الفاتح الاشقرار بحركة تلقائية، لامبالية: «أوه، يالها من مسألة بسيطة. إذا ما خطوتَ في الرمال الكثيفة الصامتة خلف قمرات المصطافين، فلن ترى الناس الجالسين فيها، لكنك ستسمع هتافاً ما أو دردشة أو ضحكة، فتدرك حينئذ أن هذا الإنسان هو على هذه السجية أو تلك. وستعرف أيضاً بأنه: يحب الحياة، أو أنه يحمل في نفسه حنيناً جارفاً، أو أغنية ينشج صوته من أجلها، ستجد ذلك حتى في كل ضحكة يطلقها.»

فهبّ الدكتور واقفاً: «وبعد ذلك سيحني صديقي العزيز أرفن قامته الى الأمام، ويتخذ وجهه ملامح بليدة، إذا ما رأى الناس يختلفون تماماً عن أصواتهم.»

هزّ أرفن رأسه: «إنني لاأبحث عن الناس، بل عن الصوت فحسب.» ثم تقدم من الدكتور وجرّه معه الى الشاطىء. كانت هذه هي الساعة التي يظهر فيها البحر غرائبه الكبرى باسراف وثراء؛ أمّا في الساعة التي تأفل فيها الشمس فأنه يستبدل لوناً بآخر. لم يكن هناك سوى مركب شراعي منفرد شاحب الصفرة يلمع فوق صفحة الماء، وباخرة بيضاء ضخمة، مخططة بلون أزرق صاف، تبحر صوب جزيرة روغن، وترفرف وراءها أمواج فضيّة البياض، أشبه بسرب من اللقالق.

«هذه هي باخرة روغن، إذاً إنها الساعة السادسة مساءً»، همس الدكتور بعفوية، وهزّ أرفن رأسه موافقاً: «لقد رأيت بعينك؛ إننا نراها تبحر كل يوم الى هناك، فاعتدنا عليها، وماعادت رؤيتها تفرحنا.

لكنني أفكر في الصوت الرخيم الذي ينطق: (إنها باخرة روغن) أو (الباخرة البيضاء) أو (السفينة الفضّية)، فأنصت حينئذ الى الصوت، مثلما أنصت الى نواقيس مقدسة خافتة، ثم أبحث عن باخرة روغن في الأفق، فأجدها مثلما تمناها الصوت، وينتابني شعور بالثقة والطمأنينة: إنها فعلاً مثل إوز أبيض.»

حرّك الدكتور هنكه رأسه باستهجان عنيف، وغمغم لحظةً، ثم سارا معاً صامتين عبر أحراش السرخس التي يضاهي ارتفاعها ارتفاع قامتيهما، وفوق الأحراش بدأت غابة الزان تحفّ بنشوة.

في الأيام اللاحقة شعر الدكتور بالضيق وعدم الإرتياح، حتى عندما كان يستلقي على ظهره في الغابة، كما كان يفعل كل مرة بمتعة؛ إذ تراه يفكر في أرفن، ويتحسس أن هذ التفكير أخذ يقلق راحته ويعكّر مزاجه، فحاول التخلص منه عبر الاختلاط بالناس في شرفة المصحّ الكبيرة طوال فترة العصر، متذرعاً بقراءة الجرائد، فبدا بعد ذلك منهمكاً حقّاً في قراءة مقالة افتتاحية، لدرجة أنه لم ينتبه الى أرفن الذي انتصب أمامه بعناد. اجتاحه رعب من مظهر صديقه المنفعل، وأراد أن يطرح عليه سؤالاً، بيد أن أرفن عاجله بالقول وهو زائغ البصر: «تعالَ معي» ، فلم يعترض الدكتور. ذهبا معاً صامتين وقطعا الشارع بمحاذاة الشاطىء، وعندما توغلا في كثبان الرمل البيضاء بدأ هنكه يراقب صاحبه بحذر، بينما وقف أرفن ينتظر، وقدماه مغروزتان في الرمال الكثيفة. كانت عيناه واسعتين ضمآنتين وقد انفرجت شفتاه برقة مثل شفتي من يتنصت. بعد ذلك أخذ الدكتور يتأمل الناس الذين كانوا يتجاذبون أطراف الحديث أو يضطجعون باسترخاء وبصفاء شديد فوق الرمال المشمسة، فبدا التناقض بين إسترخائهم الكسول ولهوجة مرافقه المتقطع الأنفاس مخيفاً بعض الشيء. أخيراً وقف أرفن وقبض على معصم الدكتور بقوة ليجبره على الوقوف. لاذا خلف قمرة

خشبية، وتناهى الى أذنيّ هنكه صوت امرأة عجوز، لم يكن غريباً عليه، ثم جاء صوت فتاة خافت، جليّ، غريب النبرة، فتقدم من القمرة وسحب معه أرفن الذي أخذ جسده يرتعد.

اتضح أن السيدة العجوز كانت زوجة الجنرال فمر، والتي كانت طاولة طعامها في الصالة قريبة من طاولة الدكتور. قدمت يدها له في بودّ. هنا لمح الى جانبها فتاةً غريبة، كانت تحني رأسها قليلاً، فتوزعت أشعة الشمس الآفلة على شعرها الغزير الفاحم السواد. صافحت زوجة الجنرال صديق الدكتور، ثم أدارت رأسها اللطيف الدقيق الهيئة، قائلة برقّة: «هدفغ.»

فرفعت الفتاة رأسها دون أن تفتح عينيها، فقدمتها المرأة: «ابنة أختي.»

هنا أحنى أرفن جذعه كما لو أنه في حضرة ملكة، وهمست زوجة الجنرال في أذنه «إنها عمياء.» فارتجف أرفن ذعراً، ثم تحدث الى الدكتور فوراً عن لعبة تنس وعن رحلة الى مستودع الحطب في طرف الغابة. بعد فترة قصيرة قالت العجوز: «إنني لاأعرف السباحة، لكن ابنة أختي ترتاح لها جداً.» فهزّت العمياء رأسها إيجاباً: «أعتقد أن الإستحمام مفيد تماماً للصحة.» كان صوت الفتاة كالأغنية، بيد أن أرفن فكّر في أن صوتها بدا حزيناً، وبدا الدكتور منغمراً في الحديث، وأطلق ضحكة هو والعجوز في إحدى المرات. أسرّ أرفن الى الدكتور بصوت خافت: «ماأجملها من فتاة لو كانت مبصرة!» فهزّ الدكتور منكبيه. وأشارت زوجة الجنرال، التي لم تسمع ماهمس به أرفن، بيدها الى البحر. كانت الباخرة البيضاء ذات الخطوط الخضراء الغامقة تبحر بعيداً في إتجاه روغن.

نظر الدكتور الى ساعته وقال: «هذه هي باخرة روغن. إنها الساعة السادسة.»

بدأت العجوز تتخيل بصوتها الشائخ المتعب: «كم جميلةٌ هي الإنارة.» فتثاءب الدكتور. وتعقب أرفن ببصره السفينة وهو في حالة من الإنتظار والترقب، لكن الفتاة ظلّت ساكتة؛ إذ أنها لم تبصر ملامح أرفن، فقالت العجوز: «لقد أصبح الجو بارداً.» وحنى أرفن قامته عميقاً حين طلبت السيدتان الإذن بالانصراف، وظلّ وصاحبه صامتين مدّة من الزمن. بعد ذلك فرك الدكتور راحتيه، وقال: «لقد أصبح الجو بارداً فعلاً.» وما انفكّ أرفن يتطلع الى البحر الذي تراءت صفحته النائية فضيّة رمادية، وقال بنبرة كئيبة وكأنه يخاطب نفسه أكثر مما يخاطب الدكتور: «إنها تبصر بواخر أخرى في بحر آخر، وتبصر في عالم غير هذا العالم، ولذلك أصبح صوتها هكذا.»

توحّد

صبّت السيدة صوفيا الشاي لابنها المريض، فارتعشت يدها النحيلة بهدوء. كان يجلس قبالتها على مقعد مكسو بالغوبلين الباريسي، متلفعاً بالصمت، وكانت يداه البيضاويتان المرتخيتان على المسند الداكن اللون تمارسان حياتهما الداخلية المحمومة.

وضعت السيدة صوفيا الابريق الفضي على الطاولة، فبدا وكأنه استقطب ضوء الغرفة الشحيح، وتحسست مفرقها الأبيض ثم جلست على الكرسي العميق ذي الذراع الخلفية، فانثنى ثوبها الحريري. أخذت تنظر الى الجانب، مبتسمةً برقة؛ إلا أنها لم تلحظ، حتى تلك اللحظة، شحوب وجنتي ابنها الشاب المريض بالقلب، ولا الارتجاف الخفيف، في طرفي أنفه، الذي بدا مثل خفقات جناحي فراشة توشك على الموت. لم تكن تشعر إلا بأنه قد عاد الى المنزل بعد أعوام طويلة، وبأنها تستطيع أن تتحسس جبينه بيديها اللتين لم يستنفد حبهما بعد، وتستشف بعينيها الخائفتين رغباته من النظرات. لقد نسيت تماماً أنه عاد بسبب دائه الخطير، وشكرت اللّه؛ لأنه منحها فرصة حمايته، وبدت سعيدة لمعرفتها بأنه قد بقي بعيداً عن مسار العواصف والأعاصير، وكذلك لأنها كانت قادرة بطريقة ما على الإعتناء به كلما بدا مسلوب الإرادة، غارقاً تماماً في ملكوت حبها.

لقد ارتسم هذا الإدراك على وجهها مثل لمعان ساكن شديد البهاء، وبدت عينا غيرهارد وكأنهما شاخصتان، تحدقان في الفراغ اللامتناهي؛ إلا أنهما كانتا في الواقع ترصدان السعادة الغامرة الحالمة التي طغت على ملامحها. فتأمل الفتى بروحه المريضة القلقة تلك

الإبتسامة حتى أدرك عمقها، وأخذ يفكّر: هكذا هي الأم! لقد شكرت ربها لأنني عدت الى الدار، لكنني عدت لأموت. شكرتْ اللّه لأنني أصبحت بعيداً عن الخطر، بينما الحياة هي الخطر ذاته. شكرتْ اللّه لأجلي ولأجل حياتي، بينما أنا في الواقع لست أكثر من ذبول مبكر، وثمرة منخورة. هكذا هي الأم.

بعد حين بدأت أقداح الشاي تترنم بلحن فضّيّ، فقالت السيدة صوفيا وهي غارقة في أحلامها: «لقد بقي كل شيء على عهده– في دارنا– أليس كذلك؟ لم يتزحزح أي مقعد من مكانه. وحتى الصور قد بقيت على حالها مثلما علقتها أنت بنفسك، ومازالت صورة «عازف الكمان» لهانس توما تطل على فراشك. لقد كنت شغوفاً بها أيام صباك. هل مازلت تحبها؟» بيد أن المريض بالكاد هزّ رأسه. «ماالذي كان يعزفه حسب اعتقادك؟ أظنّ أنه كان يعزف نشيدكَ الوطني.»

فجذب الشاب نفساً عميقاً وقال باضطراب: «بل كان يعزف لحن طفولتي، يعزف لحن الحزن وخيبة الأمل والانقطاع.» كان غيرهارد يتكلم بصوت واهن، ثم صدحت الأقداح بالغناء من جديد.

سألته السيدة صوفيا برعب: «ألا تشعر بالحب إزاء طفولتك، يا غيرهارد؟» فنظر إليها المريض بجديّة صارمة: «حبّ؟ يالها من كلمة! لقد أحببتها مثلما يحب المرء أكذوبة تعده بالسعادة، أو حلماً يكون فيه المرء ملكاً، أو مكرمة يصبح لها المرء عبداً. إنني أحبّ الحجرات التي سكنت فيها تلك الأكذوبة، وأحبّ صوتك الذي كان يمثل حنينها، ولهفتها، وأحبّ الدروب كلها التي سرت فيها تحت امرتك؛ تلك الدروب الساكنة الخالية من الضجيج التي كانت تطوف حول الحياة لتصل الى ربك.»

ندّت عن السيدة صوفيا حركة ما سقطت إثرها الملعقة على صحن الفنجان بحدّة، ثم قالت ببرود: «لقد ربيتك على الورع والتقوى.»

فابتسم غيرهارد ابتسامة قصيرة: «ماذا يعني الورع والتقوى؟ إنهما نشوة الطواف في دهاليز الكنائس المظلمة، وأشجار عيد الميلاد المضاءة بالشموع، والامتنان للحياة اليومية الهادئة التي لاتعكر صفوها الأعاصير، والحب الذي أضاع الطريق وأخذ يبحث، متلمساً الآثار نحو اللانهاية، ثم يأتي الحنين بعد ذلك كله، الحنين الذي يطوي يديه، بدلاً من أن ينشر جناحيه.»

ثم قذف المريض برأسه بعيداً الى الوراء، فلم تعد العجوز ترى منه سوى حنكه الذي انتشرت فيه بضع شعيرات صفراء متباعدة ورقبته النحيفة بشرايينها المتصلبة البارزة. ومررت السيدة صوفيا أصابعها الناعمة على رقبتها بانفعال، وأخذت تعبث بياقتها السوداء المدببة باضطراب ظاهر، ثم قالت بصوت بالغ الرقة والحنان: «هل تلوم نفسك ياغيرهارد؟»

ظلّ الشاب جامداً، لكن يديه خفقتا بوهن قائلاً: «كلا، ياأميّ!»

«ثم تتكلم بهذه الطريقة...؟» سألت السيدة العجوز بقلق، فنكّس غريهارد رأسه ببطء، ثم حدّق أحدهما في الآخر. قال: «يجب أن أشكرك في الحقيقة على ماقمت به من أجلي عندما أخذت بيدي الى عالم المعجزات، متوغلة فيّ عميقاً في ذلك العالم دائماً وأبداً. وهكذا أوصلتيني الى طريق الإيمان، لدرجة أنني أحتجت عشرة أعوام لكي أتخلّى عن الإيمان.»

مدّت السيدة صوفيا جذعها الى الأمام على طريقة من لايريد أن يضيّع كلمة واحدة، فتابع المريض كلامه بنبرة لينة حانية ورقيقة، تجلّ عن الوصف، وبدت كل كلمة منه وكأنها تتوسل الصفح والمغفرة: «ياوالدتي، عليكِ أن تعلمي أن هذه الأعوام العشرة كانت بالنسبة لي بمثابة عودة مقبضة، موحشة، ويائسة؛ لأنني شعرت خلالها بالتعب والخوار، لكن يجب عليّ، بالرغم من كل شيء، أن أشكركِ، — لو أنني

لم أكن مريضاً الى هذا الحد. إنني أقف الآن في بداية الطريق، ومع ذلك عليّ أن أغادر الحياة، حتى يخيّل إليّ وكأنني لم أحيا قط؛ إذ أنني لم أجد طريقي الى الحياة أبداً. خمسة عشر عاماً من الضلالة والضياع وعشرة أعوام من الصراع المرير بغية الرجوع الى البداية: هذا هو أنا.»

«غيرهارد»، قالت الأم متوسلةً ويداها ترتعشان، تنفرجان ثم تتشابكان حيرةً واضطراباً، «إنك هكذا تجني على نفسكَ.»

بيد أن الابن ردّ منطلقاً من أعماق أفكاره الدفينة: «أقف في بداية الطريق ومع ذلك يتوجب عليّ أن أغادر الحياة؛ إنه لأمر محزن حقّاً.» ثم امتلأت عيناه ألماً وحسرة، بحيث أن السيدة أطبقت يديها على وجهها وأجهشت بالبكاء.

لاذ غيرهاد بالصمت، واستقرت عيناه بمحض الصدفة على صورة أبيه المعلقة بالقرب من النافذة، حيث يمكن التعرف على قسماته تحت ضوء الغسق. لم يعد يتذكر شيئاً عن أبيه؛ لأنه كان صبياً صغيراً آنذاك عندما غادر أبوه البلدة من أجل امرأة غريبة. أمعن المريض فكره يتأمل ثم قال: «أعتقد أنني أصبحت الآن أكثر غربة وبعداً منكِ إليه.» فضغطت السيدة صوفيا منديل الكتان الرقيق على عينيها، وفاح على الفور عطر الخزامي في أرجاء الغرفة، وسألته بصوت جاف: «مَنْ؟»

«الوالد!» أجاب غيرهارد بشيء من الخشونة والفظاظة.

تطلعت إليه المرأة العجوز برعب وبعينين مرتجفتي الأجفان، في حين أرتعشت شفتاها بتشنج وهما تهمان بالإعتراض، بيد أنهما لم تعثرا على كلمة يمكن أن تقال؛ إذ أحست فجأة بأن عليها الدفاع قليلاً عن ذلك الشيء الذي هدده ابنها والذي كان يحيا في أعماقها، واهباً إيّاها القوة والبركة، ومتمتعاً بحقّ أقدم بكثير من حق الابن. وتمنت في تلك اللحظة لو أنها تستطيع الهرب، لكنها أخذت تتطلع بخجل وخشية الى عينيّ المريض الذاويتين المغمضتين وفمه الشاحب المتعب

بفعل الكلمات الكثيرة، ففتنتها حيرته اليائسة المؤثرة. وعلى حين غرّة، وبشكل لاإراديّ، وضعت في ذهنها الأثنين معاً الى جانب بعضهما: اللّه الراقد في أعماقها والذي هدده غيرهارد وابنها العليل السيء الطالع، وقد لبثت فترة طويلة على هذه الحال.

حملت الأسابيع القادمة صراعاً غامضاً خفياً، حاولت السيدة خلالها التخفيف من حدته عبر اخفاء ربها واغراقه عميقاً في روحها، لتجنبه الإلتقاء بابنها، وأصبحت تنزع الى التسرع المذعور من ناحية، والى الكتمان الذي يشوبه الوجل من ناحية أخرى، مما سلب الثقة والإطمئنان من كل حركة تقوم بها. وصارت تقفل الأبواب عليها عندما تؤدي صلاتها المسائية، وحالما تسمع نواقيس الكنيسة في الغروب، تهرع الى غرفة مظلمة، لترسم بارتجاف علامة الصليب المألوفة. وبدأت تختصر ابتهالاتها وتضرعاتها الى اللّه، التي دأبت عليها كلّ ضحى مُذ كانت صغيرة، الى مجرد ذكر عابر تماماً، حتى أنها باتت تشعر بالرعب من إمكانية أن يكتشف غيرهارد هذا التغيّر في عينيها ذات مرة. كان هذا الهلع يلقي بظلاله عليها مثل هاجس غريب، إلا أن هذا التغيّر العجيب لم يبق خافياً على نظرات المريض المترصدة؛ فأخذ ينقب ويبحث بلاوعي الى حد ما عن أسبابه حتى أرهقته الظنون والإحتمالات، وأصبح سريع الإنفعال، يشعر بالندم والمرارة على الدوام، ويتحدث كثيراً عن (العودة)، لكن ليس بنبرة الخذلان الوديعة المتوجعة مثلما كان يفعل من قبل. حينئذ شعرت السيدة صوفيا بالخوف على اللّه الذي كان يرقد في داخلها، وعلى المريض أيضاً بالقدر ذاته؛ فهي كانت تحبهما معاً، وتدرك جيداً بأن الصراع المستعر بينهما سينتهي بمقتل أحدهما لامحالة.

في تلك الأسابيع المليئة بالرعب تحوّل اللّه الجبار العزيز، الذي رافقها منذ أيام طفولتها، ووفر لها الحماية والعون، الى اللّه الصغير

الخائف الذي لم يعد أكثر من ملكية شخصية، يتوجب عليها حمايته ورعايته، مثل طائر صغير سقط من عشه. وذات مرّة أصابها الفزع عندما لاحظت ذلك، وانتباها احساس بأن ربها المستتر في غيهبها المظلم أصبح يزداد حيرة وصغراً وفقراً يوماً بعد آخر، وارتعدت فرائصها خشية أنه قد يتلاشى ذات يوم بدون مقاومة وبصمت، فينطفىء مثلما ينطفىء السراج الذي نفد زيته. كما أدركت في الوقت ذاته بأنها ستتحول بدون ذلك الربّ الى ورقة ميتة، لذا فإن عليها انتشاله من غيهبه ووضعه تحت النور الساطع. وبفعل هذا الإحساس بادرت تقول لغيرهارد ذات مرة عندما جلس قبالتها ساعة الغروب: «إنني مؤمنة باللّه، ولا أحد يشفيك غيره.» كان في نبرة صوتها نوع من التهيّب، فأعادت قولها بشيء من الشجاعة: «إنني مؤمنة باللّه.»

نهض العليل بصعوبة وخطا نحوها كما لو أنه أراد أن ينتزع شيئاً منها بالقوة، فارتعبت السيدة صوفيا من نظراته، وأخذت ترتعد من منظر يديه العليلتين عندما وضع أصابعه الباردة العجفاء على رقبة ربها لكي يخنقه، فتوسلت بابنها أن يتركه بسلام، بيد أنه ظل واقفاً أمامها. فأطلقت زفرة عميقة وهي تقاوم وتدافع دفاعاً مستميتاً كما لو أنها كانت تدافع عن نفسها ضد لعنة كافرة: «إنني مؤمنة باللّه.»

دنا الابن منها وتناول يديها المرتعشتين، وأخذ يهزّ رأسه: «أجل»، ثم أضاف كما لو أنه كان يرد على مقولة إنسان آخر «...لكن إلهكِ لايستطيع انتزاع المرض من بدني؛ لأنني لم أحمله بسببه، إنما أبي هو من ابتلاني به.» فانكمشت الأمّ من فرط الرعب، واستطاع الابن أن يتحمل نظراتها التي أصابها الإنهيار شيئاً فشيئاً. وترك يديها تسقطان، ثم زحزح مقعده قريباً منها وجلس ،فالتقت عيونهما، فأخذت الأمّ تفكّر: لقد أصبحنا الآن بعيدين حقاً عن بعضنا.

كان أحدهما يشبه الآخر شبهاً كبيراً، وأصبح الوقت متقدماً، وكان افتراقهما الطويل قد جعلهما لايتعرفان على ملامح بعضهما

البعض، فجلسا هكذا، الى أن شعر المريض: (سأكون وحيداً منقطعاً في هذه الفترة القصيرة؛ إذ أن شفاهنا لم تعد قادرة على أن تمنح شيئاً لبعضها، فألام قد أصبحت عاجزة حتى عن الإبتسام، وذلك عندما صارت تهب قبلاتها الى ربها وحده، وبعد أن بدت كلماتها وكأنها مستمدة من لغة غريبة، وعليه سأظلّ وحيداً منقطعاً، لكنها لها ربها.)

ثم حلّ الصمتْ.

بعد لحظة قالت كما لو أنها قذفت بمفرداتها من ضفة الى أخرى عبر نهر واسع هادر: «كانت رسائل أبيك تثير في نفسي الرعب. لقد كان جائعاً طوال الوقت، وكنت أبعث إليه بالنقود– أرجو المعذرة.»

فهتف الابن من شدة الفرح: «وأنا كنتَ أفعل ذلك أيضاً.» هنا عثرت عيونهما على الطريق الى بعضها، ممتلئةً بالبريق ذاته المنطوي على الاعتراف بالجميل، فتلاشت المسافات البعيدة الفاصلة بسرعة هائلة، ثم توحدت يداهما بحرارة روحية مثل شخصين أراد أحدهما اغاثة الآخر.

قسمة
(تخطيط لحكاية عن الغجر)

افترش كرال القوي البنية، باسترخاء وتثاقل، حافةَ الحقل المليء بالأخاديد، أمّا تيانا فتربعت الى جانبه ضاغطة على وجهها الطفولي بيديها السمراوين، ولبثت تنصت متحفزةً بعينين واسعتين، ومتطلعتين الى مساء الخريف. وفوق الأعشاب العليلة ربضت عربة التجوال الخضراء التي رفرفرت على بابها الأقمطة بخفة وعذوبة، وثمة دخان رقيق أزرق كان يندفع من مدخنة حديدية ضيقة الفوهة، ويتبدد مرتجفاً في الهواء المتخم الثقيل. وهناك في الخلف، فوق التلال التي بدت عبر تموجاتها البعيدة المنسرحة وكأنها على وشك أن تطفح، كان حصان الجر المنهك يخوض في الوحل، ويقتلع بلهوجة الأدغال الشحيحة المتأخرة النمو. كان أحياناً يتوقف عن القضم ويرفع رأسه، متطلعاً بعينيه الصبورتين الوديعتين الى المساء الخريفي ذاته الذي أنارته نوافذ قرية صغيرة كانت تبعث تحيّات من ضوء.

قال كرال بنبرة صارمة خشنة: «أنتِ ياهذه! إنه موجود من أجلك وحدك.»

فلم تجبه تيانا. فأضاف كرال بتجهّم: «وإلا ماالذي يفعله بروكوب هنا؟». فهزّت تيانا كتفيها، وقطفت بحركة سريعة خصلةً طويلة من العشب الفضي وحشرتها بدعابة وغنج بين أسنانها البراقة الشديدة البياض، ثم توقفت عن الحراك، وبدت كما لو أنها كانت تحصي الأنوار التي انبعثت من القرية. بعد ذلك بدأت صلاة المساء. كان رنين الناقوس الصغير المدوّي قد تلاشى الى حد ما بفعل الجهد والارهاق، ثم

أنقطع دفعة واحدة، لكن صدى الرنين ظلّ معلقاً في الهواء كأنه شكوى. طوّحت الفتاة الغجرية بذراعيها، واتكأت على المنحدر، وما لبثت أن أغمضت عينيها،تصغي الى صرير الجدجد الوجل، والى صوت أختها الواهن وهي تردد ترنيمة في العربة الخضراء.

أنصتا معاً برهة حين شرع الطفل، الذي كان في العربة، يبكي بصوت خفيض يائس. أدارت تيانا رأسها الى الغجري وخاطبته بتهكم: «لمَ لاتذهب لتساعد امرأتك ياكرال! فالطفل يصرخ.»

«بروكوب موجود هنا من أجلكِ»، قذف بهذه الإجابة المبتورة. فحركت الفتاة رأسها بعناد وتحد، قائلةً: «أعرف ذلك.»

أمسك كرال ذو الجسد العنيف بيدها الأخرى، وضغطها على حافة المنحدر، فبدت تيانا كالمصلوبة، وعضّت على شفتيها حتى أدمتهما، محاولةً تجنب الصراخ، لكنه انحنى عليها بهيئة تهديد. فلم تعد تيانا تبصر شيئاً من المساء، إنما رأته وحده بمنكبيه العريضين الثقيلين، وشعرت بجسده الهائل فوقها، وقد حجب عنها العربة والقرية والسماء الشاحبة. أغمضت عينيها بضع ثوان، فنطق شعورها: «كرال يدعى الملك في الألمانية. وهو كذلك فعلاً.» ثم شعرت بعد لحظة بالألم الحارق يصعد من معصميها كالعار والمهانة، فانتفضت ثائرة، وحررت نفسها بدفعة مباغتة، ثم انتصبت أمام كرال بعينين وحشيتين تشعّان نشوةً وحيوية.

زعق بها:

«ماذا تريدين؟»

فابتسمت تيانا بهدوء وقالت: «أريد أن أرقص.» ثم طوحت بذراعيها النحيلتين كذراعي طفل، وجعلت ترفرف بهما الى الأعلى والى الأسفل بانسياب ورقة كما لو أن على الذراعين السمراوين أن يكونا جناحين. أسندت رأسها بعيداً الى الوراء، فتناثر شعرها الفاحم

السواد، منزلقاً بنعومة ثم وهبت إبتسامتها العجيبة الى أول نجمة في السماء. أخذت قدماها العاريتان اللدنتان تتلمسان الأرض بحركات رشيقة بحثاً عن إيقاع مناسب، وبدا جسدها الغض يتمايل بمتعة واعية واستسلام لاإرادي دلعاً ودلالاً، مثل سيقان الزهور الرقيقة التي قبّلها المساء.

وقف كرال أمامها بركبتين مرتجفتين متخلخلتين، وحدّق في الصفرة البرونزية لكتفيها العاريتين، فشعر على نحو غامض بأن تيانا تحب الرقص.

كانت كل نسمة تهب على الحقول تتناغم مع حركاتها بغنج شديد الخفة والزهو، فتحلم الزهور كلها، في حلمها الأصل، بأن تتمايل مثلها وتلقي بالتحيات. حامت تيانا مقتربة من كرال، ومالت بجذعها على نحو غريب نادر، لدرجة أن ذراعيه بقيتا مشلولتين من فرط الدهشة. نهض كالعبد، وأنصت الى وجيب قلبه، فدارت تيانا مترنحة، حائمةً بالقرب منه، فخفقه وهج حركتها كما الموجة، ثم انزلقت متباعدة الى الوراء، وابتسمت بخيلاء وانتصار شاعرةً بأنه «ليس مَلِكاً في حقيقة الأمر.»

نهض الغجري ببطء وصار يطاردها كما الطيف، ويتحسس الطريق إليها خلسة. فجأة كفّ كرال عن الحركة، وانظم شيء آخر محلّق ومرفرف الى حركة تيانا. وتفتحت أغنية خافتة غامرة، بدت راقدة في الحركة ذاتها منذ زمن، تفتحت عبر ايقاعاتها بامتلاء وثراء. فترددت الراقصة، وأصبحت حركاتها بطيئة، هامسة، ومنصتة في آن. رمقت كرال بنظرة، فأدركا معاً بأن الأغنية كانت ثقيلة الوطأة، تصيب بالشلل، فحرفا بصرهما بتلقائية في إتجاه واحد ولمحا: بروكوب يسير في الطريق إليهما. كان جذعه الفتي ينفصل، متمايزاً عن غسق الغروب

مثل خيال الظل. تقدم بلاوعي، وبخطى حالمة، يعزف اللحن نفسه على ناي فلاحي بسيط. لاحظ كيف أنه كان يقترب منهما خطوة إثر خطوة، فهجم عليه كرال وانتزع الناي الخشبي من شفتيه. لكن بركوب استعاد توازنه سريعاً، ممسكاً بيديه القويتين ذراعي المهاجم، وتمكن من صده، متحملاً بعينين متسائلتين نظرات كارل العدوانية. انتصب الغريمان قبالة بعضهما، وغدا كل شيء حولهما هادئاً تماماً، وأخذت العربة الخضراء تتطلع الى الحقول عبر نافذتيها المشعّتين بنور خافت مثل عينين حزينتين مترقبتين. انفصل الغجريان عن بعضهما بغتة دون أن ينطقا بحرف ثم تطلعا الى تيانا؛ تطلع كارل إليها بعناد، أمّا الآخر فقد فعل ذلك باعتراف متسائل هامس أطل من عينيه السوادوين. وبفعل نظرات الغجريين تراخت حركات تيانا، حتى تراءى لها في لحظة من اللحظات بأن عليها أن تخطو نحو بروكوب، لتقبله، وتسأله: «من أين جئت بهذه الأغنية؟»؛ إلا أنها لم تجد الجرأة الكافية، فقرفصت على حافة الدرب واجمةً حائرة مثل طفل أصابه البرد. كان فمها صامتاً، ومن بعد صمتت عيناها. انتظر الشابان برهة الى أن قذف كرال الآخر بنظرة تحدّ عدوانية، ثم سار، في حين لبث بركوب في مكانه. لمحت تيانا نظرات الوداع في عينيه الحزينتين، فارتعد جسدها. بعد حين بدأ قوامها الرشيق اللدن يتحوّل الى ظلّ شبحي قلق، ثم تاه في الدرب الذي مضى فيه كرال. سمعت تيانا وقع الخطوات يتردد في الحقول، فحبست أنفاسها وأرهفت سمعها، تصغي الى الليل:

مرقت نسمة عذبة عبر الحقول المتطامنة، دافئةً وديعة، مثل أنفاس طفل نائم، وبدا كل شيء شفافاً صامتاً، ثم تهادت عبر السكون البعيد نغمات الليلة الفتية: حفيف الأوراق في أشجار الزيزفون العجفاء، وخرير ساقية في مكان ما، وسقوط ثقيل لتفاحة ناضجة بين أعشاب الخريف الشديدة الارتفاع.

إيفالد تراجي

I

سار إيفالد تراجي الى جانب والده بالقرب من «الخندق». وعلى المرء أن يعلم أن ذلك قد حدث نهار الأحد، أي في يوم السباق. كانت الثياب تعلن عن الفصل: مطلع تشرين الأول، بعد صيف مهترىء منهك. وبالنسبة لبعض الأزياء؛ فإن ذلك الصيف لم يكن صيفها الأول. مثلاً بالنسبة للرداء الأخضر للسيدة فوناي، أو فستان الحرير الاصطناعي الأزرق للسيدة فانكا، والذي لو أعيد النظر فيه وأجريت عليه تعديلات جديدة، لاستطاع التحمل عاماً آخر بكل تأكيد، حسب تقدير تراجي، الابن.

مرقت من أمامهما فتاة شابة وابتسمت. كانت ترتدي فستاناً وردياً شاحباً من القماش الصيني المحبب، وقفازين مغسولين توّاً، فاستحم الرجال من ورائها بعطر البنزين الخالص، حتى أن تراجي شعر إزاءها بالاحتقار. لقد كان عموماً يحتقر هؤلاء الناس كلهم؛ إلا أنه كان يلقي التحية بأدب جمّ وبمجاملة متكلفة على الطريقة القديمة. إنه كان يفعل ذلك في الواقع بعدما يؤدي أبوه تحيةً، أو يردّ بالشكر؛ إذ أن تراجي الابن، شخصياً، ليس له معارف. ومع ذلك كان عليه أن يرفع قبعته دائماً؛ لأن والده كان رجلاً محترماً، من الوجهاء، أو شخصية معروفة، كما يقال. كان مظهره ارستقراطياً، لدرجة أن صغار الضبّاط والموظفين الشباب يشعرون بالفخر الى حد ما عندما يتمكنون من إلقاء التحية عليه. حينئذ يقطع السيد الكبير صمته الطويل ويطلق كلمة «نعم»، ثم يلحقها بعبارات الشكر بكل كرم وبرحابة صدر. فكان من شأن هذه ال «نعم» أن تساعد على اشاعة الوهم بأن

السيد المفتش وابنه كانا مستغرقين في حديث عميق وسط فوضى سباق الخيول في يوم الأحد، وأن اتفاقاً نادراً في الآراء قد ساد بينهما؛ في حين أن الحديث كان يجرى على النحو التالي:

«نعم» قال السيد تراجي مكافئاً في الوقت نفسه السؤال المثالي الذي انطوت عليه التحية القلبية المعطاة والقائل: (ألست أنا إنساناً مهذباً في غاية التهذيب؟)

«نعم» قال السيد المفتش، فكانت هذه العبارة بمثابة صكّ غفران.

أحياناً كان تراجي، الابن، يقبض على هذه «النعم» بقوة ليردف إليها السؤال: «من هو هذا ياأبي؟» فتبقى النعم (المسكينة) معلقةً في الخلف مثل أربع عربات قُطرت خلف محرّك قطار على السكّة الخاطئة، لاتستطيع التقدم ولا التراجع. هنا تطلع السيد تراجي، الأب، حول نفسه، يستطلع مصدر التحية التي لايعرف من ذا الذي أطلقها، فامعن التفكير مسافة ثلاث خطوات كاملة، ليقول بارتباك وحيرة قد أثارا الشفقة «نععععمْ؟»

في بعض المناسبات كان يضيف إليها: «أن قبعتك متربة حقّاً.»

«كذا؟» أجاب الشاب الفتى بخضوع وتواضع.

حينئذ اجتاحتهما نوبة حزن.

وبعد عشر خطوات نمت فكرة القبعة المتربة في مخيلة الأب والابن معاً بشكل غير طبيعي. (إن الناس كلهم يتطلعون الينا، فيا لها من فضيحة حقّاً) فكّر الأب، بينما أجهد الابن نفسه ليتخيل منظر القبعة التعيسة وكيف وصل إليها الغبار. (على الاطار) خطر في ذهنه، وفكّر: (أن المرء لايستطيع أن يفعل شيئاً. فلابد من اختراع فرشة للتنظيف...)

وحالاً رأى قبعته مجسدة أمامه، فأصابه الرعب: لقد رفع السيد فون تراجي القبعة عن رأس الابن، وأخذ يضغط عليها باهتمام، ويقوّم

إعوجاجها باصابعه الملفوفة بقفّاز أحمر. حملق تراجي الصغير في القبعة لحظة برأس حاسر ثم انتزع حاجته المهينة من يديّ السيد الكبير الحذرتين، وقلب غطاء اللّباد على رأسه بعنف واندفاع كما لو أن النيران قد التهمت شعره: «لكن ياأبتي» – أراد أن يقول أيضاً: (لقد أصبح عمري ثمانية عشر عاماً، وفوق هذا كله تخلع قبعتي عن رأسي، في يوم الأحد بالذات– وفي عزّ الظهيرة وأمام الناس كلهم!) بيد أنه لم ينبس بكلمة واحدة. لقد غصّ بكلماته، وأصبح مهاناً صغير الحجم كما لو أنه كان يرفل بثياب فضفاضة تتسع على الدوام. فجأة ابتعد السيد المفتش عن ابنه وسار في الناحية الأخرى من الرصيف المقابل، متصلباً ومحتفلاً في آن، ولم يعد يعرف ابنه. وهكذا تبدد يوم الأحد كله بينهما. لم يكن هناك في الواقع شخص واحد من بين تلك الجموع لايعرف أنهما يرتبطان بصلة قرابة، فصار الجميع يلعن الصدفة الرعناء، البالغة القسوة التي دفعت بهما الى الانفصال عن بعضهما.

كان الناس يتجنبونهما، وهما بدورهما كانا يتجنبان الناس أيضاً، بتعاطف وتفهم تامين، ولم يكن الناس يشعرون بالارتياح إلا بعد أن يروا الأب والابن يسيران جنباً الى جنب متوحدين.

وفي بعض الأحيان كان هناك من يعتقد بوجود شبه معيّن، يزداد وضوحاً باستمرار في مشيتهما ولفتاتهما، فيفرح المرء بهذا الاعتقاد. زماناً كان الفتى يقيم خارج المنزل، أو كما يقال يخضع الى التربية العسكرية. وقد عاد الى أهله ذات يوم –لايعلم أحد لأي سبب– شاعراً بحالة من الاغتراب الشديد.

لكن آنذاك قال سيّد كهل طيّب القلب، كان قد تلقى للتو (نعماً)، هديّة من المفتش تراجي : «أرجوك، أنظر جيداً؛ إنه يميل برأسه قليلاً ناحية الشمال –مثل أبيه تماماً»، ثم شعّ السيّد الكهل سروراً إثر هذا الاكتشاف.

وكذلك كانت السيدات العوانس يظهرن اهتماماً بالشاب، فكنّ يلقين به لحظةً قصيرة فوق نظراتهن الواسعة أثناء مرورهن، ثم يضعنه في الميزان، ليطلقن الحكم: بلاشك أن أباه كان رجلاً جميلاً، بل مازال جميلاً الى يومنا هذا، ولايمكن أن يكون إيفالد مثله. مستحيل. إن اللّه وحده يعلم من ذا الذي يشبهه. ربما جاء على شاكلة أمّه (ياترى أين تختفي الآن!) لكنه رشيق القوام على أيّة حال، فياليته يصبح راقصاً جيداً...

وكانت إحدى العجائز قد خاطبت ابنتها ذات الفستان الوردي: «إيلي، هل شكرتي السيّد تراجي بلطف؟» بيد أن فرح الكهل والاهتمام الفطن كله الذي أظهرته أم إيلي كانا فائضين عن الحاجة. حالما انعطف الرجلان في إتجاه جادة (النبلاء) الضيقة الفارغة من الناس، مخلفين مكان السباق وارءهما، تنفس الابن الصعداء:

«إنه الأحد الأخير.» قال وسحب نفساً عالياً نوعاً ما. ومع ذلك؛ فإن السيّد الكبير لم يجد أي ضرورة في الردّ عليه. فياهذا الصمت، فكّر إيفالد، إنه مثل زنزانة المصابين بالعصاب؛ زنزانة صمّاء مبطنة بقسوة من جميع الجوانب.

سارا حتى بناية المسرح الألماني، وهناك سأل تراجي، الأب، دون تمهيد:

«ماذا؟»

فكرر تراجي، الابن، قوله بصبر هذه المرة:

«إنه يوم الأحد الأخير.»

«نعم»، ردّ المفتش باقتضاب، «ومن لايتمنى ذلك!» وحلّ الصمت. وبعد لحظة أضاف الأب «اذهب حيثما شئت، ولتحرق جناحيك، لعلّك ترى بنفسك ماذا يعني الوقوف على القدمين. حسناً؛ فلتصنع تجاربك بنفسك. فلا اعتراض لدي أبداً. حسناً ستفعل!»

«لكن ياأبتي؟» ، قال الشاب بشيء من الحدّة. «أعتقد أننا قد تحدثنا في هذا الموضوع بما فيه الكفاية.»

«وبرغم ذلك فأنني لم أفهم بالضبط ماالذي تريده. إن المرء لايرحل عن أهله لوجه السماء الزرقاء! قل لي ماالذي ستفعله في ميونخ؟»

«أعمل» ، سارع إيفالد الى اعطاء إجابة جاهزة.

«هك. . . ذا، كما لو أنك لاتستطيع العمل هنا!»

«هنا؟» ابتسم الفتى بتروٍّ؛ إلا أن السيد فون تراجي ظلّ محتفظاً بهدوئه التام: «ماذا ينقصك هنا؟ لك غرفة خاصة بك، وتحصل على طعامك، كما أن الجميع يودّك ويريدك. فضلاً عن أنك معروف هنا من قبل الآخرين، وإذا ما قمت هنا بمعاملة الناس معاملة صحيحة فستفتح أمامك أولى الأبواب»

«الناس دائماً وأبداً، الناس!» ، تابع الابن كلامه بنبرة التهكم والإستهزاء ذاتها، «كما لو أن هذا هو كل شيء. فليذهب الناس الى الشيطان، إنني لاأشغل نفسي بهم قط-» عندما أطلق هذه العبارة المتعجرفة، المليئة بالغرور، خطرت في ذهنه قصة القبعة، فشعر بأنه كان يكذب، لذلك أكّد من جديد: «دعهم يكنون لي الودّ- هؤلاء الناس. من أي جنس هؤلاء رجاءً؟ بشر-ربما؟»

فابتسم السيد الكهل، وشعّت في مكان ما من وجهه الناعم ابتسامة غريبة، متميزة للغاية، بحيث لايمكن القطع فيما إذا كانت قد انطلقت من شفتيه، تحت الشارب الذي وخطه الشيب، أم من العينين مباشرة. ثم سرعان ماتبددت بعد لحظة قصير؛ غير أن الفتى ذا الثمانية عشر عاماً لم ينسها، بل شعر بالخجل منها، فأخذ يقذف بالكلمات الطنانة أمام خجله: «عموماً» ، نطق الابن ورسم بيده خارطة قلقة في الهواء. «يبدو أنك لاتعرف سوى شيئين لاثالث لهما: الناس والمال. وحولها يدور كل شيء حسب تصورك. وعلى المرء أن

يذل نفسه ويركع أمام الناس؛ عليه أن يزحف على بطنه من أجل المال، هذا هو الهدف؛ أليس كذلك؟»

«ستكون بحاجة إليهما معاً ياولدي.» قال السيّد الكبير بتأن. «إن المرء لايحتاج الى الزحف على بطنه إذا ما توفر لديه المال دائماً.»

«وإذا كان لايملك مالاً–» قال تراجي الابن بتردد.

«ماالذي سيحدث فيما بعد؟» سأل الأب وظلّ ينتظر الإجابة.

«أوووه»، نفخ الآخر نافياً بلامبالاة. وبدا له من الأفضل لو أنه يبدأ بجملة جديدة؛ غير أن الأب أصرّ على القول: «فيما بعد؟» ثم حسم الأمر بنفسه دون أدنى اعتبار للابن، «سيتحول المرء الى وغد سافل، وسيجلب العار لامحالة الى نسبه الشريف.»

«أوه، إنكم تستخدمون عبارات!» أظهر السيد الشاب إستنكاره التام.

«نحن بالطبع لسنا من أبناء هذه الأيام»، قال السيد الكهل.

«كفى!»

«هذا هو الموضوع بالضبط»، هتف تراجي الابن بحماس وظفر: «لقد أتيتم أنتم من عصر ما، من عام الخليقة، معفرين بالتراب، شديدي الجفاف، بشكل مطلق–»

«لاتزعق»، أمر المفتش وبانت عليه ملامح الضابط القديم.

«لكن هذا من حقي.»

«أخرس!»

«لكنني أستطيع الكلام.»

«تكلم، ياأنت!» قطعَ السيد فون تراجي بعبارته في العمق وباحتقار تام، فكانت هذه العبارة القصير (تكلم ياأنت) مثل صفعة على الوجه. وانتقل الأب تراجي الى الناحية الثانية من رصيف المشاة متصلباً ومحتفلاً. ولأن الشارع كان فارغاً تماماً؛ فإنهما لم يلتقيا مرة

ثانية بسهولة، وبدا كما لو أن طريق سير المركبات المشمس الساخن أخذ يزداد اتساعاً بينهما. وفي تلك اللحظة اختفى التشابه بين الأب وابنه، وأصبح مشيّ السيّد الكبير وهيئته الخارجية خاليين من أي عيب، وبدأت جزمته الطويلة تصدر بريقاً ساطعاً نحو اليمين ونحو الشمال. وطرأ على الآخر في الناحية الثانية تغيّر كبير أيضاً؛ إذ إنكمش كل شيء فيه كما الورق المتفحم، وامتلأت بدلته بالتجاعيد، وانتفخت ربطة عنقه، وبدا اطار قبعته وكأنه أصيب بالورم. كان الابن يحمل جاكيتته القصيرة الحديثة الطراز وكأنه يحمل معطفاً مطرياً، لايرتديه إلا بعد هبوب العاصفة. كانت خطواته تتصارع مع بعضها، وبدت هيئته مثل صورة قديمة نُقش عليها بالطباعة الحجرية رقم (١٨٤٨) أو عبارة (ثوري).

غير أنه، بالرغم من ذلك، كان يتطلع الى الرصيف الآخر بحذر شديد، وشعر بقلق عندما رأى الرجل الكهل يسير وحيداً منقطعاً على الرصيف الموحش الذي لاينتهي. كم كان يبدو وحيداً، فكّر الابن- ثم استدرك: ماذا لو وقع له مكروه... !

منذ تلك اللحظة لم يعد بصره يغادر الأب، وظلّ يرافقه حتى كاد بصره يجرح من شدة الجهد.

أخيراً وقف الرجلان أمام المنزل ذاته، وعندما دخلا في الممر الطويل توسل إيفالد: «بابا!» كان مضطرباً تماماً فقال بعجلة: «أرفع ياقتك ياأبي- لأن الجو بارد دائماً في ردهة السلّم.»

كان صوته مرتعشاً متخوفاً حين طرح سؤالاً في الأخير، برغم أن لامجال هناك للتساؤل، فأهمله الأب، ولم يرد عليه، بل أمره: «عدّل ربطتك!»

«نعم»، أكد إيفالد بحذلقة مرتبكة ثم سوى ربطته. طلعا درجات السلّم معاً، متمهلين ومحترسين، مثلما يقتضي صعود السلّم من ناحية وقائية صحّية.

كانت السيدة فون فالباخ، التي تدعى العمة كارولينه، تسكن في الجهة اليمنى من السلّم، حيث تتناول العائلة كل أحد طعام الغداء- في تمام الساعة الواحدة النصف.

كان السيدان تراجي دقيقين في المواعيد. وبرغم ذلك كان الجميع حاضراً؛ إذ أن كلمة (دقيق) قابلة للمدّ والتصعيد مثلما هو معروف. تردد إيفالد لحظة في مدخل الدار أمام المرآة؛ لأنه أراد أن يكسب وجهه ملامح (الأحد الأخير) ، ثم دخل خلف أبيه الى الصالون الأصفر.

«آ. . . ها»

أبدى مجتمع الغداء دهشة مسرفة، خارقة، حتى أن كل واحد منهم دهش لدهشة الآخر. كان دخول الثنائي تراجي يعتبر عادة حدثاً مثيراً وزهيد الثمن. ولابد أن يعرف المرء .كيف يجعل الحياة ثرية- بطريقة ما. كان الاستقبال حاراً، وكان المرء يحتاج الى خبرة منضّد حروف، لكي يلتقط الأيدي الصحيحة من الأحضان المختلفة ويتركها دون أن يقع في أخطاء مطبعية. لقد حقق إيفالد من خلال وجه (الأحد الأخير) انجازاً هائلاً. فبينما كان السيد الكهل وصل تواً الى أخته يوحنا، كان الفتى تراجي قد انتهى من مصافحة ثلاث عمّات وأربع بنات عمّات، إضافة الى الصغير إيغون و (الآنسة) دون أن يظهر عليه أي قدر من الإرهاق.

أخيراً وصل السيد فون تراجي، الكهل، الى الهدف، فجلس قبالة ابنه، وأخذ يمارس معه لعبة التجويع. رأت بنات العمّات الأربع أن من الأفضل كسر الصمت، فحاولن الحاق كلمة بهذه الحاجة أو تلك- مثلاً بمقياس الحرارة الجوية، أو النباتات الصحراوية التي وضعت على الأفريز، أو الجائزة النحاسية المعلقة فوق الأريكة، بيد أن تلك الأشياء كانت صقيلة ناعمة بشكل لايصدق، فتسقط منها الكلمات مثلما يسقط العَلَقُ بعد الارتواء من الدم. وحلّ الصمت من جديد، مخيّماً

على الجميع مثل خيوط غزل باهتة طويلة. حينئذ حركت كبيرة العائلة، أرملة الرائد إيلونوره رشتر، أصابعها العجفاء المتصلبة في حضنها برقة وكأنها كانت تنسج من الضجر اللامتناهي كرة غزل بعناية فائقة، فيدرك المرء على الفور: أنها تنحدر من ذلك الزمن العتيد الذي لم تكن فيه النساء يجلسن مكتوفات الأيدي. كان النوع الجنسي الذي تطلق عليه أرملة الرائد عبارة (شاب) يفصح عن نفسه بأنه ليس شيئاً خاملاً متراخياً. وكانت الآنسات الأربع يطلقن في وقت واحد اسم «لورا؟» فيبتسم الجميع إثر هذه النغمة العذبة كمن رزق بنعمة. وافتتحت العمة كارولينه، ربّة البيت، النقاش: «كيف ينبح الكلب؟»

«واوو، واوو»، نبحت الآنسات الأربع، وزحف الصغير إيغون ليساهم بحيوية في النقاش؛ غير أن ربّة البيت اقتنعت بأنها قد أشبعت الموضوع الأول نقاشاً، فاقترحت: «والقطة؟» فانشغل بعض الحاضرين بالمواء والنعيق والثغاء والزئير، كلاً حسب ماكان يحمل من أحقيّة وميول. وبات من الصعب الجزم بأن هذا أو ذاك هو الذي كان صاحب الموهبة الأصيلة؛ لأن جهاز القوقأة في حنجرة أرملة الرائد قد طغى على خليط الأصوات الهادرة المتزحلقة، حتى أن الأرملة شعرت وكأن شبابها قد عاد لها من جديد. هناك ثم صرّح أحد ما باحترام بالغ: «إن العمة بدأت تقاقيء.» غير أنهم كانوا لايتوقفون عند ذلك الحد، إنما يبدون مأخوذين بتلك الوفرة من الإمكانيات، فيقومون بمحاولات جريئة متناوبة، فيضيف أحدهم بعضاً من قدراته الذاتية الى تلك المقاطع الصوتية النادرة والمصاغة بعناية. كما لابد من الإشارة الى أنه برغم المواهب المتفردة، كان ثمة شبه عائلي شفاف يجمع بين الأصوات، بحيث يصدع له القلب من فرط رقته، ألا وهو الإيقاع الجوهري

المشترك للقلوب المجتمعة والذي كان ينشأ منه، وحده، كلّ فرح صادق.

فجأة بدأ ببغاء أخضر رمادي كان يتحرك خلف قضبان صفراء؛ ويمكن القول بهذه المناسبة أن هناك نوعاً من الاعتراف النبيل قد لوحظ في انحناءة رأسه المتأملة والصامته، حتى أن الجميع أحس بذلك، فعمّت السكينة، وانتشرت إبتسامات الشكر. كانت طلعة الببغاء تشبه طلعة معلّم موسيقى يهودي كان ينحني مرات عديدة أمام تلامذته. كان جميع من في العائلة قد تعلّم عدداً من المفردات الرنانة التي لم يكن قد حلم بها من قبل، وذلك منذ أن أصبحت لورا من السكان الدائميين للمنزل، فازدادت من خلالها الثروة اللغوية للعائلة بشكل ملموس. واتضحت هذه الحقيقة من خلال المديح الصامت للطائر، وتوغلت في وعي الحاضرين وجعتلهم سعداء فخورين. وهكذا؛ فإن كل واحد منهم كان يأخذ مكانه على المائدة وهو في مزاج رائق.

كان إيفالد ينتظر كل يوم أحد الى أن تبتسم العمة الثالثة، الآنسة أوغسطه، معلنةً: «أن الطعام ليس مجرد وهم.» فيجب حينئذ أن يؤكد أحد الحاضرين بحكم العادة الحسنة قائلاً: «كلا؛ إنه لاشيء بدون الوهم!»

كان ذلك يحدث هذا عادةً بعد وجبة الدورة الثانية؛ وكان إيفالد يعرف بدقة تامة ماالذي سيأتي بعد الدورة الثالثة، وهلّم جرّا.

عندما تلبى الطلبات يصبح الكلام قليلاً، وذلك بسبب (القائمين بالخدمة) من ناحية؛ ولأن دخول المرء في حوار ثنائي مع صحنه يجعله في غنى تام عن الآخرين من ناحية أخرى. وكان المرء يقوم في أكثر الأحوال بمنع إيغون الصغير الذي لم يكن يحق له الكلام، إلا بعد أن يوجه له سؤال، من الشبع أو حتى من إزدراد لقمته، وذلك عبر

إلهائه وصرف انتباهه عن الأكل بالملاطفات الرقيقة. فكان يتولد لدى الصغير شعور بالتخمة، غير مريح في البدء، فيجعل من (الآنسة) التي كان وجهها يصطبغ بحمرة الخجل بالتدريج، موضعاً لثقته، فيبوح لها بأشد مشاعره حميمية. أمّا الآخرون فكانوا لايظهرون ذلك القدر من السرّية.

لم يكن بينهم من ملأ صحنه دون اطلاق زفرة خافتة، سرعان ماكانت تتصاعد وتصل حد الألم، كلما دخلت الفتاة الخادمة حاملةً طبق الكريمة الدسمة الشهية. وإذا ما اقترب منهم ذلك الإثم المتجمد، ملحاً عليهم، فمن ذا الذي يستطيع حينئذ مقاومته؟

آنذاك فكّر السيد المفتش: (آه لو أتناول قنينة من الصودا...!) فالتفتت الآنسة أوغسطه الى ربّة البيت: «ألا يوجد في الدار مسهّل للهضم يا كارولينه؟» وبابتسامة ماكرة سحبت السيّدة فون فالباخ طاولة صغيرة بالقرب من المائدة، وضعت عليها علب كثيرة من الصفيح والكارتون الى جانب زجاجات غريبة الأشكال، صالحة للاستعمال، فابتسم الحاضرون، وانبعثت في الجو رائحة مواد صيدلية كاملة، ثم طاف طبق الكريمة المثلجة من جديد.

فجأة حدث خلل غير متوقع، إذ نهضت أكبر السيّدات سنّاً، وكانت سليلة العشيرة بما لا يقبل الشك، فهتفت محذرةً: «وأنت، يا إيفالد؟»

كان صحن إيفالد فارغاً.

فتساءلت الأعين كلها (وأنت؟) وفكرت ربّة المنزل: (أنه يعزل نفسه دائماً عن العائلة. وسنكون كلنا غداً في حالة يرثى لها، أمّا ـ هو؟ فهل يصح هذا؟)

قال الشاب: «شكراً!» باقتضاب ودفع الصحن قليلاً، بمعنى أن

هذا الموضوع قد حسم- فأرجوكم! غير أن أحداً لم يتفهم ذلك التصرف.

شعر الحاضرون بالسعادة؛ لأنهم عثروا على موضوع للنقاش، فاجهدوا انفسهم لمعرفة المزيد من التفاصيل والإيضاحات.

«إنك لاتعرف ما الجيّد-» قال أحد ما.

«شكراً.»

فاشرعت بنات العمّات الأربع ملاعقهن الى الأعلى وقلن: «جرّب.»

«شكراً!» كرر إيفالد رفضه، ونجح دفعة واحدة في إدخال التعاسة الى قلوب أربع فتيات شابات، فتعكر الجو الى أن أتت العمة أوغسطه باقتباس: «كانت الجدة تقول دائماً: (مايأكله المرء... كلا- مثل مايعاني المرء...)»

«لا، ليس هكذا.» قالت العمة كارولينه مصححةً: «يعاني مايستطيع المرء-»، بيد أن المثل لم يكن صائباً هذه المرة أيضاً، فوقعت بنات العمات الأربع في حيرة واضطراب. هنا هزّ السيد فون تراجي رأسه لابنه: (أظهر براعتك الآن، أفحمهن- تقدم، هيّا، تقدم الى الأمام!)

لكن تراجي ظلّ صامتاً، عارفاً بأن الجميع كان ينتظر منه معونة؛ ولأن اليوم كان يوم الأحد الأخير، فقد عقد العزم أخيراً على القول: «يأكل المرء مايشتهي، ويعاني مايستطيع». قذف العبارة هكذا باحتقار كبير، فامتلأ الجميع بالإعجاب، وصار أحدهم يناول المثل للآخر، لكي يتفحصه ويضعه في الميزان، قبل أن يمضغه، ليسهل به الهضم، حتى بُلي من كثرة الاستعمال، فعاد مرهقاً معطوباً الى إيفالد، قاطعاً المائدة كلها، فدسه في فم (الآنسة) الفرنسية الشاحبة الوجه فتلقفته باعتباره تمريناً لغوياً جديداً، وأحنت رأسها، لتناول المثل بدورها الى الصغير إيغون: «مايُحبُ المرءُ يأكلُ...»

وظلّ إيفالد فترة طويلة مركز الاستقطاب الثقافي والروحي للعائلة، وصار الحضور يدهشون من سعة ذاكرته، الى أن كوّرت العمة كارولينه شفتيها بازدراء: «هـْمْ، هـْمْ- إذا كان الإنسان فتيّاً. . . »

وهنا فكّرت بنات العمات الأربع في هذه الحقيقة: إذا كان الإنسان فتيّاً. . .

كان يمكن ملاحظة إحساس الإزدراء حتى على وجه الصغير إيغون الممتقع الصفرة: إذا كان الإنسان فتيّاً، لدرجة أن الفتى ذا الثمانية عشر عاماً تساءل في نفسه: ماهذا الذي يحدث هنا؟! إنهم ربما يتوقعون ولادتي مرّة أخرى!

على أية حال؛ لقد كان إيفالد منفعلاً، وبدا له من المناسب جداً أن تقوم العمة أوغسطه بين لقمة وأخرى برواية قصة أسنانها- في مرحلتي السعادة والتعاسة معاً؛ إلا أنه قاطعها في أكثر المشاهد إثارة، فنطق مباشرة في فم العمة المنفرج بسعة: «أثناء الطعام، أعتقد. . . » ثم تمنى أن يردّ عليه أحد ما بالقول (إنك لست مجبراً على المساهمة معنا في الحديث، ويمكنك مغادرة المكان إذا لم يعجبك!)

عندما بدأ البعض برفع كأس (الكونياك) ، ليشرب في صحة الآخر، ظنّ الشاب: أن أحداً ما سيرفع كأسه ويهتف (نخبك يا إيفالد. . .) ؛ إلا أن الحاضرين شربوا في صحة بعضهم البعض، واحداً تلو الآخر، دون أن يبادر أحدهم الى القول: (نخبك يا إيفالد)

وحلّت فترة صمت طويلة، أتاحت لإيفالد وقتاً كافياً لتناول الأفكار المقلقة، وشعر بغتة بان أنظار الجميع كانت مسلطة عليه وحده، ترمقه باستهزاء وشماتة، فبذل جهداً لينفضها عن نفسه بحركات وجلة. بيد أن كل حركة بدرت منه جعلت هذه الشباك غير المرئية أكثر تعقيداً وخبطة، فثارت ثائرته وغدا حادّ المزاج، ثم سرعان ماأصيب بالاضطراب، وبدأت أفكاره تدور بلا انقطاع في دوامة.

وبفعل الغضب والنزق كان يتوصل كل مرة الى الفكرة التالية: على المرء أن يخاطب هؤلاء باقذع الكلام وأشده قسوة وفظاظة، بل يجب أن يسمل أعينهم بعبارة جبّارة مهولة، لتتخلى الى الأبد عما علقت به. لكن هذه الأمنية ظلت مجرد أمنية؛ لأنه، من ناحية ثانية، كان يحبّ تلك الحياة اليومية البائسة والمريحة معاً، التي نما وترعرع في كنفها، مثلما يترعرع طفل اللصوص الذي يحتقر مهنة والديه، لكنه، بالرغم من ذلك، سيتعلم السرقة ذات يوم، ولو ببطء شديد.

وفي الحال وجهت إليه العمة أوغسطه كلامها البريء عندما كان يتقلب في همّه وحيرته: «إذا لم تناسب أحاديثنا السيد الجالس هناك، فعليه أن يتحفنا بما يسلي به نفسه على الأقل، وحسب ذوقه. والآن . . . سوف نرى- إيفالد إنك بالتأكيد كثير السفر والتجوال؟»

إلا أن إيفالد الذي كان بالكاد يصغي، فغر عينيه وابتسم في حزن: أوه. . . أنا. . .

ثم التقط من بعيد كلام بنات العمّات الأربع وهن يذكّرنه: «قبل أربعة أو خمسة أسابيع بدأت تروي لنا قصة. . .»

فحاول على الفور أن يتذكر أي قصة كانت هذه، واستفسر باهتمام: «كيف كان ذلك، رجاءً؟» فاستغرقت بنات العمات بالتفكير فترة طويلة. في تلك الأثناء التفتت ربّة البيت إليه بالقول: «هل مازلت تنظم الشعر؟»

فامتقع وجه إيفالد على الفور، وخاطب بنات العمّات: «ألا تعلمن بذلك. . .؟!» ورأى كيف فتحت أرملة الرائد فمها دهشةً: «ما. . . ذا؟ ينظم الشعر؟ في زمني. . .»

وبرغم ذلك حاول أن يتذكر حكايته التي بدأها قبل خمسة أو ستة أسابيع، وتمنى أن يضعها في سياق ما؛ لأن ذلك اليوم كان يوم الأحد الأخير، لكي يتنفس الصعداء. وفجأة قاطعته السيدة فون فالباخ

بالقول: «دائماً ما يكون الشعراء مشتتي الأذهان! أعتقد أننا جاهزون الآن للذهاب الى صالة الجلوس.» ثم وجهت كلامها الى إيفالد «بالنسبة للقصة، هناك مايكفي من الوقت لسماعها، فيمكن تأجيلها الى الأحد القادم، أليس كذلك؟» وابتسمت بظرف وبخفة روح قبل أن تنهض، وشعر إيفالد بأن: هناك (يوم أحد مقبل على الدوام)، وسيبدو حينئذ كل شيء «عبثاً»؛ لقد خرجت منه هذه الزفرة دون إرادة؛ إلا أن أحداً لم يسمعها.

بدأت الكراسي تتزحزح من مكان الى آخر، وأخذ الحاضرون يتثاءبون ويتمطون ويتحدثون بأصوات دسمة هانئة، وكلما شهقوا أو تجشأوا، انطلقت عبارة «هنيئاً» كما لو أنها تدحرجت فوق حجارة رصيف مصفوفة على نحو سيء، ثم انسحبوا الى الصالون، ليغسلوا أيديهم الناضحة بالعرق. ولايختلف الأمر هناك عما كان عليه في المكان السابق؛ إذ جلسوا متباعدين عن بعضهم، فبدا شعور الانتماء العائلي ليس حميمياً الى الدرجة التي بدا فيها على المائدة. وبدأت أرملة الرائد بالتجوّل أمام البيانو، وتطقطق أصابعها المتصلبة، لتقوّم أعوجاجها، فقالت ربّة البيت: «إن العمة تعزف كل شيء على السمع، وهذا أمر يثير العجب.»

فتساءلت العمة أوغسطه بتعجب: «حقّاً؟! عزف سماعي؟ على الغيب؟»

«وعن ظهر قلب.» أكدت بنات العمّات الأربع ثم التفتن الى السيدة الرائدة: «رجاءً أعزفي.»

إلا أن أرملة السيّد رشتر تركتهم يتوسلون بها فترة طويلة، قبل أن تسألهم بسخاء: «ماذا تحبون أن تسمعوا؟»

«ماسكاجني...» حلمت بنات العمات– كان ماسكاجني موضة حديثة آنذاك.

«أجل» ، قالت السيدة إيلونوره ريشتر وبدأت تجرّب مفاتيح البيانو.

«معزوفة الفرسان؟»

«نعم» ، أجاب البعض.

«بلى» ، قالت السيدة العجوز وأمعنت التفكير.

«العمة تعزف كل شيء حسب السمع.» قالت العمة أوغسطه التي غفت بهدوء، فأضاف أحد ما بعدما جذب نفساً عميقاً: «شيء مدهش حقّاً!»

فقالت الرائدة بتردد وهي تجرب المفاتيح، «أجل؛ لكن يجب أن يصفر لي أحد منكم.»

فصفر لها السيد المفتش: «هذه هي روح المزاح التي أبحث عنها.»

– ميكادو، الباب العالي!

ابتسمت العمة مؤكدة: «بالضبط» وأضافت «كافاليريّا»، ثم ابتسمت مرّة أخرى كما لو كانت تلك المقطوعة تمثل (ذروة أيام شبابها).

بدأت بمعزوفة ميكادو، (المقام السامي)، والحقت بها، بصفاء يثير العجب، مقطوعة (الطالب المتسول) و (نواقيس كورنيفيل).

وبعد حين نام الحاضرون، معترفين للسيّدة الرائدة بالجميل، قبل أن تلتحق بهم هي أيضاً.

لم يعد إيفالد يتحمل المشهد، ورأى أن عليه الاحتجاج بعبارة ما، فقال كما لو أنه تذكّر مقطوعة موسيقية كانت تعقب عادة (نواقيس كورنيفيل) : «الأحد الأخير!»

لكن لم يصغ الى كلامه سوى الآنسة جان التي تقدمت منه بخطى غير مسموعة على السجادة المتينة النسيج، وجلست قبالته قرب

النافذة. فتأمل أحدهما الآخر لحظة قصيرة ثم سألته الفرنسية برقة:
Est-ce que vous partirez, monsieur?»

فأجابها إيفالد بالألمانية، «نعم؛ سأرحل بعيداً، يا آنسة. سأرحل- بعيداً» ، كرر العبارة وهو يمطّها ويمدها فرحاً بالحجم الواسع الذي اتخذته كل مفردة أصابها المدّ. كان في الواقع يتحدث للمرة الأولى مع جان، فتعجب من هذا الاكتشاف، وشعر في الحال بأنها ليست ببساطة (الآنسة) التي كان يعنيها الآخرون، ثم فكّر: عجيب حقّاً؛ كيف لم انتبه الى هذا أبداً. إنها من النساء اللواتي ينحني المرء أمامهن اعجاباً- يالها من امرأة غريبة. وبرغم أنه ظلّ جالساً بلا حراك ويراقبها بصمت، فقد انحنى شيء ما في داخله أمام الغريبة- عميقاً- بل مبالغاً في عمقه، لدرجة أنها ابتسمت، فكانت ابتسامتها مغرقة في العذوبة، وقد ارتسمت على شفتيها الترفتين بزخرفة باروكية، لكنها لم تصل الى حدّ الحزن الذي أحاط بعينيها المظللتين اللتين تبدوان دائماً وكأنهما أسرفتا في البكاء. إن ثمة انساناً ما في العالم يبتسم على هذا النحو- أدرك تراجي، الفتى.

وشعر برغبة ملحة في أن يكلمها بعبارات لطيفة تدخل الفرح الى نفسها اعراباً عن امتنانه لها، وبدا كما لو أنه أراد بالضرورة أن يتذكر شيئاً ما قد جمعهما معاً ذات مرة، مثلاً أن يقول لها (يوم أمس) فيبدو كلامه مفهوماً، لكن ليس هناك في هذا العالم كله شيء مشترك يجمع بين الناس . هنا باغتته جان وهو في حيرته، قائلة بلكنتها الألمانية المزركشة:

«لماذا تنوي الرحيل؟»

ثبّت إيفالد مرفقيه على ركبتيه، وأسند ذقنه الى يديه المجوفتين، ثم أجابها

«لكنكِ أنت أيضاً رحلت عن أهلك.» فقالت محذرةً بسرعة:

«لكنك ستصاب لامحالة بلوعة الغربة.»

«إنني مصاب بالحنين على أية حال»، اعترف إيفالد، وأخذا يلفان في الحديث ويدوران برهة، قبل أن يعودا الى الموضوع مرة أخرى بتفهم ورغبة؛ إذ أن جان أسرّت له بصوت خافت:

«توجب عليّ الرحيل؛ لأننا كنا ثمانية أشقاء في الدار، فتستطيع أن تتصورذلك– لكنني كنت مرتعبة تماماً. بلاريب؛ إن الجميع هنا طيبون–» أضافت في خوف ثم سألته «وأنت؟»

«أنا؟» أجاب الشاب بذهن مشتت، «أنا؟ أبداً– لست مضطراً قط الى الرحيل، يشهد اللّه، على العكس تماماً. أجل، أنظري: الجميع هنا يعلم بأن هذا هو آخر يوم أحد بالنسبة لي، فهل رأيتِ من كان يشغل باله في الأمر؟ لكن، ومع ذلك– لماذا تبتسمين؟» أضاف تراجي مقاطعاً نفسه.

«هل أنت شاعر، رجاءً؟» قالت فأحمرّ وجهها تماماً وارتعبت كالطفل.

فأوضح لها:

«هذا هو الموضوع، ياآنسة! ولاعلم لي به على وجه الدقة، لكن عليّ أن أعلم ذات يوم، أليس كذلك؟ يجب أن أفهم حقيقة الأمر بطريقة ما. إن المرء لايستطيع التوصل هنا الى حقائق واضحة؛ لأنه غير قادر على الانفصال عن ذاته، إضافة أنه يحتاج الى الهدوء، والى المكان، والى المنظور. هل فهمتِ ما أقصد، ياآنسة؟»

فهزّت الفرنسية رأسها:

«ربما! لكن... أقصد أن السيد أباك يجب أن يفرح بك، وكذلك السيّدة...»

«والدتي، أردتِ ان تقولي! هُمْ. نعم، هذا ماكان يدعيه البعض. لعلّك سمعت عنها– برغم أن لاأحد هنا يذكر اسمها علانية. لقد تخلّت عن والدي. رحلت، ولم تحمل معها سوى ما كانت تحتاجه

للرحلة، بما في ذلك الحب. ولم أعد أعرف عنها شيئاً منذ زمن طويل؛ لأننا لم نعد نتبادل الرسائل منذ عام. بالتأكيد أنها كثيراً ماتذكر للمسافرين معها في مقصورة القطار بأن (ابنها شاعر)، واعتقد أنها تفعل ذلك بين محطة وأخرى.»

ثم شاع الصمت بينهما.

«نعم، وبعد ذلك يأتي الدور الى أبي؛ إنه إنسان رائع. وأنا أحبه جداً؛ لأنه رجل نبيل، وله قلب من ذهب؛ إلا ان الناس يسألونه عادة: (كيف هو وضع ابنك؟) فيخجل حينئذ ويقع في حيرة. ماالذي يستطيع قوله في تلك الحالة؟ إن ابني مجرد شاعر؟ فهذه مسألة مضحكة بكل بساطة. حتى لو كان ذلك صحيحاً؛ فإنه عملياً غير مثمر؛ لأنه لايمثل وضعاً اجتماعياً طبيعياً؛ إذ أن الشاعر لاينتمي في هذه الحالة الى طبقة معينة، ولايحق له المطالبة بالتقاعد، وباختصار: إنه سيكون متحرراً من جميع العلاقات التي تربطه بالحياة. لهذا السبب ليس هناك من يشجّع على ذلك ويقول للعدم (أحسنت) أو (آمين!) فهل فهمت الآن لمَ لاأطلع والدي على ما أكتب؟ بل لم أطلع أي أحد من هؤلاء هنا؛ لأن ليس فيهم من يقيّم محاولاتي تقييماً صحيحاً، إنما يظهر لها العداء والكره منذ البداية، ثم يكرهني أنا من خلالها. إضافة الى أنني شخصياً مازلت أحمل الكثير من الشكوك حول كتاباتي. وحقّاً: إنني أضطجع بضع ليال كاملة، عاقداً ذراعيّ على صدري، وينهشني العذاب: (فهل أنا جدير بالاحترام؟)» ثم صمت إيفالد فجأة واجتاحته نوبة حزن.

في تلك الأثناء استيقظ الآخرون، ودخلوا الى الغرف أزواجاً، حيث طاولات لعب الورق الجاهزة. وبدا المفتش في مزاج رائق، فربت على كتف ابنه بهدوء: «نعم؟ يا شيخنا؟» فحاول إيفالد أن يبتسم ثم همّ في تقبيل يد والده.

ففكر المفتش (أنه سيبقى هنا بالتأكيد؛ وهذا بحد ذاته تصرف

عاقل وفيه حكمة) ، ثم التحق بالآخرين. بيد أن الفتى سرعان مانسي ابتسامته وأخذ يشكو على الفور: «هل رأيتِ؟ كيف كان يعاملني؟ هكذا بهدوء، ودون اللجوء الى العنف، أو إستغلال النفوذ، إنما لمجرد التذكير، كما لو أنه أراد القول: (لقد كنت ياولدي طفلاً صغيراً وكنت، بنفسي، أوقد لك الشموع في شجرة عيد الميلاد– فتأملْ) إن كلامه يجعلني متخاذلاً ومهزوزاً من الداخل؛ إذ لا مفر من طيبته، فضلاً عن الهاوية المحدقة التي كانت تقف دائماً وراء غضبه. لكنني لم أكن قد امتلكت الشجاعة يوماً للقيام بتلك الخطوة. ربما أنا شخص متخاذل على العموم، جبان؛ ويمكنك أن تصدقي ذلك، نعم؛ جبان وعديم الأهمية. لعلّ من الأفضل لي البقاء هنا، مثلما يعتقد الجميع، فأصبح شخصاً مؤدباً ومتواضعاً، أعيش اليوم البائس ذاته دائماً وأبداً. . . »

قالت جان باصرار «كلا– إنك بدأت تكذّب الآن. . . »

«أوووه، بلى، ربما. يجب أن تعلمي بأنني أكذّب كثيراً، حسب الحاجة، فمرة أطلق كذبة الى الأعلى وأخرى الى الأسفل، لكن عليّ أن أكون في منطقة الوسط، غير أنني أعتقد أحياناً أن لاشيء هناك بين الأعلى والأسفل. فمثلاً: أقوم بزيارة العمة أوغسطه، فأجد الغرفة مضاءة، حيث يشيع جوّ من الألفة في منزلها، منزل الأجداد العريق. وأختار على الفور أفضل الكراسي ثم أضع ساقاً على ساق وأقول (يا عمتي العزيزة) ، بهذا المعنى تقريباً– (إنني متعب، لذلك سأضع قدميّ المتربتين على الأريكة، فوق الشراشف الجميلة الناعمة بالذات– أرجو السماح.) ولكي لاتمنعني العمة الطيبة، حيث لاينفع المنع؛ فإنني أقدم على ذلك مباشرة بعد الجلوس؛ إذ أن لدي الكثير مما يمكن قوله، مثلاً العبارة التالية: (إن كل شيء صحيح وجميل، وإنني أعرف أن هناك عدداً من القوانين والتقاليد التي على الناس الالتزام بها بهذا القدر

أو ذاك. يجب أن تعتبريني من المواطنين الصالحين المستقيمين، أنتِ؛ ياأطيب العمّات. لكنني، أنا بنفسي، أشرّع القوانين الخاصة بي. أنا الملك الذي لايعلو عليه أحد، حتى اللّه بجبروته-) نعم، يا آنسة، هكذا تقريباً أخاطب عمتي، فيحمر وجهها من شدة الغضب والاستنكار ثم يرتعد جسدها وهي تقول: (إن هناك الكثير من أمثالك الذين أذعنوا وتعلموا الطاعة...)، فأردّ عليها بلامبالاة (ربما). فتقول (إنك لست الأول ولا الوحيد الذي يدعي ذلك. الحمد للّه، إن هناك مستشفيات للمجانين والمعتوهين، مخصصة لأصحاب هذه الأفكار) ثم تضيف عمتي بعينين دامتعين: (يوجد المئات من أمثالك.) فيستبد بي الغضب حينئذ، وأصرخ بها: (أبدا؛ أنا لامثيل لي، ولم يكن لي مثيل يوماً...) ثم أصرخ وأصرخ؛ لأنني أريد الإصغاء الى صراخي بنفسي من خلال هذه العبارة. الى أن أكتشف فجأة بأنني أواجه امرأةً مسنّةً مسكينةً، تقيم في غرفة مهجورة، وأمثل أمامها دوراً ما. فأنسحب خلسةً، شاعراً بالخجل، وأقطع الطريق كله، بخطى حثيثة وأصل الى غرفتي في اللحظة الأخيرة قبل أن تنهمر الدموع من مآقيّ. بعد ذلك-» هزّ إيفالد تراجي رأسه بقوة كما لو أنه أراد أن ينفض عنه هذه الأفكار التي كانت تنشأ باطراد على الدوام، فقد كان يعلم بأنه: سيبكي بلاشك فيما بعد؛ لأنه خان نفسه. (لكن كيف يمكن أن أفسر هذا الشعور ولمَ؟ إن هذا بحد ذاته يعتبر خيانة. ثم قال بتسرع: «هراء، آنسة- يجب أن لاتعتقدي بأنني سأبكي حقّاً-» قال وشعر بالكذب يؤلمه.

لقد جعله البوح يشعر بالإرتياح، بيد أن كل شيء يمكن أن يفسد فيما بعد. وعلى المرء أن لايبدأ بالحديث كل مرة من جديد، فكّر تراجي، وبقي صامتاً، واجماً.

وصمتت الآنسة أيضاً. وأخذا يصيخان السمع: كانت أوراق

اللعب تتقاطر على الطاولات مثلما تنهمر قطرات البلل من الأشجار التي يهزها المرء. ومن وقت الى وقت كان ينطلق صوت ما، معلناً نبأ مهماً:

«ستوزع العمة!»

أو: «من سيخلط الورق؟»

أو: «أنت وحظك!» وثمة كركرة بنات العمّات الأربع، فوق ذلك كله.

فكّرت جان مليّاً، وأرادت أن تقول شيئاً لطيفاً، موجهاً له بالطبع وبلغة المانية؛ إلا أنها لم تعرف بعد كيف تُدفيء تلك المفردات الأجنبية، فناشدته أخيراً في وجل وحياء: «لاتكن حزيناً هكذا.»

فرفع الفتى بصره وتطلع الى وجهها بجدية، وتأمله فترة طويلة الى أن توقفت الآنسة عن التفكير في أنها ربما قالت كلاماً لامعنى له. هزّ إيفالد رأسه قليلاً ثم تناول يدها بهمّة، ودسّها بحذر بين يديه. كانت هذه مجرد محاولة، لكنه لم يكن يعرف ماالذي سيفعله بيد الفتاة، لذلك أخلى سبيلها، فتركها، هذا الشاب الفتي، تهوي ببساطة.

في تلك اللحظة عثرت جان على عبارات المانية جديدة، بدت فخورة بها: «لكنك في حقيقة الأمر لم تخسر شيئاً؟!»

هنا أرخى إيفالد يديه في حضنه وتطلع عبر النافذة الى الخارج.

ثم حلّ صمتٌ.

«إنك مازلت شاباً، في مقتبل العمر-» قالت الفتاة مواسيةً بتردد وبشيء من الخجل. فنفخ إيفالد:

«أوه». لقد كان مقتنعاً فعلاً بأن الحياة بالنسبة له قد انتهت الى الأبد؛ ليس بمعنى أنه اخترقها من الوسط، بل بمعنى أنها مرقت من أمامه، هكذا بلا رجعة. والآن لم يعد بامكانه أن يواصل الكذب، إنما أصبح حزيناً واجماً.

«شاباً؟ أرجوكِ؟ لقد فقدت كل شيء. . . »

صمتْ.

«ياالهي» ، قال وأجهد نفسه، لكي يتحاشى أي نبرة عاطفية، فابتسمت الفرنسية. إنها بلاشك فتاة متدينة ورعة، لكنه لم يفهم معنى هذه الإبتسامة، بل أنها ضايقته الآن بالذات، وخدشت مشاعره قليلاً. فطلبت الفتاة منه المعذرة، ثم وقفت وقالت:

«إيفالد» ، لفظت الاسم مشددةً، خطأً، على حرف الألف، والحقت في آخره ياءً صامتةً مدغمةً وشديدة الغموض، أوحى وقعها بالبشرى والأمل، «أعتقد أنكَ ستعثر في البدء على كل شيء. »

وانتصبت أمامه باستقامة، وعلى نحو احتفالي، فخفض جبينه وأوشك أن يهتف بزهو: (يافتاتي!) ، هكذا بترفع حزين، شاعراً بالامتنان في الوقت ذاته، وواتته رغبة في أن يصرخ مبتهجاً: (أنني أعلم بذلك) ؛ إلا أنه لم يفعل شيئاً. هنا لاحظ أحد الجالسين في غرفة اللعب أن الصمت بدأ يسود في الغرفة المجاورة، وقطبت السيدة فون فالباخ جبينها هاتفة بلهجة آمرة: «جان!» فاظهرت جان بعض التردد. يبدو أن ربّة البيت كانت قلقة تماماً؛ لذلك قامت بنات العمّات الأربع بمساعدتها: «آنسة!»

انحنت الفرنسية ونطقت بعبارة لايمكن البتّ فيما إذا كانت أمراً أم سؤالاً: «وأنتَ؟ هل سترحل؟!»

«نعم» ، همس إيفالد بعجلة، وشعر بيدها تتحسس شعره برهة قصيرة، معاهداً الفتاة الشابة الصغيرة على أنه سيطوف حول العالم دون أن يعلم كم سيبدو هذا الطواف غريباً.

II

من الصعب التصديق أن: إيفالد تراجي كان ينام أربع عشرة ساعة متواصلة، في سرير فندق بائس للغرباء، حيث كان الصخب يعمّ في

ساحة محطة القطارات، وحيث كانت الشمس تشرق مبكرةً في الساعة الخامسة. لقد نسي أن يحلم، برغم علمه بأن الأحلام الأولى تحظى عادةً باهمية خاصة، فأخذ يعزي نفسه بأن كل شيء سيتحقق بالقدر ذاته، سواءً حلم الإنسان أم لم يحلم، واستيقظ مخلفاً نومه الخالي وراء أمسه، مثلما يخلّف المرء علامة شارحة. انتهى الأمر. هكذا؛ والآن؟

الآن يمكن أن تبدأ– هذه الحياة، أو ذاك الشيء الذي بدأ يتعاقب على نفسه بنفسه. فتمطّى الفتى باسترخاء على وسادته؛ ولعله أراد أن يستقبل الأحداث وهو متدثر في دفء لطيف! انتظر نصف ساعة أخرى، لكن الحياة لم تأت. فنهض وقرر أن يذهب بنفسه لاستقبالها. إن على المرء أن يقدم على هذه الخطوة، فكانت تلك هي الحكمة الأولى التي جاء الصباح الأول.

منحه ذلك الإدراك هدفاً محدداً وقدرة على الحركة، ودفع به الى الخارج، حيث المدينة الجديدة المضاءة. في البدء، كان يعرف أن الشوارع هنا طويلة لامتناهية، وأن عربات الترام صغيرة الحجم الى درجة مضحكة. أخذ يميل ببساطة الى إيضاح هاتين الظاهرتين من خلال ارتباطهما ببعضهما، مما جعله يشعر بنوع من الارتياح العميق. كانت الأشياء كلها تستأثر باهتمامه، الكبيرة منها والمثيرة بشكل خاص. وبدا له أنه كلما تقدم النهار، فقدت الأشياء قيمتها أمام مزاريب المطر الطويلة التي كان تراجي يقف قبالتها ويتأملها، حيث لم يعد يبتسم ساخراً من قصاصات الأوراق الصغيرة الملصوقة على المزاريب، ولا مما حملته من تعهدات، كذلك لم يكن له الكثير من الوقت ليتعجب من اللغة التي كتبت فيها تلك الإعلانات. كان يترجم ماورد فيها بهمّة متشنجة، ويدوّن الأسماء والأرقام في دفتر ملاحظاته. أخيراً أقدم على المحاولة الأولى، بعد أن سوّى ربطة عنقه في

الممر، مقرراً في نفسه: سأقول بكل أدب: (أرجو المعذرة؛ توجد هنا غرفة للايجار، أليس كذلك؟)

كان يدق أجراس المنازل وينتظر، ليتحدث بلغة المانية فصحى متواضعة النبرة والتشديد. وحدث أن امرأة ما فارعة الطول، ضخمة، حشرته حالاً في باب، كان يقع على اليسار قبل أن ينتهي من سؤاله، وخاطبته:

«أقول لحضرتك منذ البداية، كيف هي الغرفة. نظيفة. إذا احتجت أي شيء آخر...» ثم وضعت يديها على خاصرتيها منتظرة قراره.

كانت الغرفة صغيرة ذات نافذتين، وفيها أثاث متكلّف الصنع، ومظلمة بشكل يبعث على الاعتقاد بأن على المرء أن يستأجر معها حاجيات أخرى كثيرة لم يحلم بها من قبل قط. وبما أن الشاب لم ينطق بحرف واحد، ولم يتمكن من رؤية ما في الغرفة العتمة من أشياء، فقد أضافت المرأة ببطء «هذا كله يكلّف عشرين ماركاً في الشهر، مع الفطور، وهو ما كنّا نتقاضاه دائماً-» فهزّ تراجي رأسه بضع مرات، وتقدم من (مكتب) خشبي قديم، رُكن في أحد الزوايا، وأخذ يتفحص لوحة الكتابة التي برزت منه، فابتسم وسحب جارورتين أو ثلاث من الجارورات الصغيرة في خلفية المكتب، ثم اطلق ابتسامة جديدة: «هل ستبقى هنا، طاولة الكتابة هذه؟» وبدأ يستطلع من جديد، وقد عزم تماماً على البقاء هنا. غير أنه تذكر قائمة الأرقام الكثيرة، التي سجّلها في دفتر ملاحظاته، مثلما يتذكر المرء مهمةً جليلة الشأن، فأدلى برأيه على عجل: «هذا يعني أنني أستطيع التفكير في الموضوع حتى يوم الغد؟»

«نعم، ليكن»

تفحص تراجي البيت بدقة مرة أخرى، وسجّل في دفتره (السيدة

شوستر. فنكن شتراسه ١٧، المنزل الخلفي، الطابق الأرضي، طاولة كتابة) ثم وضع وراء (طاولة كتابة) ثلاث علامات تعجّب.

بدا مرتاحاً فيما بعد، مقتنعاً بما أنجزه، فلم يقدم على محاولة بحث ثانية في ذلك اليوم.

في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي بدأ يتصفح دفتر ملاحظاته، وهذا ليس بسهل؛ إذ أن التجوال كان يسعده في وقت الضحى حين يكون الناس قد شبعوا نوماً، وتكون الغرف قد تمت تهويتها بصورة كافية. كان يدوّن بدقة جميع المزايا- هناك نافذة مستديرة مطلة على الخارج، في الجهة المقابلة أريكة، ثمة حمّام في الرقم ٢٣، وسلّمان، لاأثر لطاولة كتابة في الحقيقة. ويضع هنا وهناك تحذيرات صغيرة مثل: (أطفال صغار) أو (بيانو) أو (حانة). بعد ذلك تبدو الملاحظات باهتة، مقتضبة، تتقلب فيها انطباعاته تقلباً غريباً. وقد بدأت حساسية الشمّ المرهفة تزداد قوة بالقدر ذاته الذي ضعفت به قواه البصرية، لاسيما في وقت الظهيرة، حين تكون هذه الحاسة المهملة على درجة كبيرة من الفعالية والكمال، فتتيح له إدراك العالم الخارجي برمته. حينئذ يفكّر: أها، عدس، أو: كرنب مطبوخ بالحامض. ويلتفت الى عتبات المنازل إذا ماهبّت في وجهه رائحة ماء انبعثت من الثياب المغسولة، فينسى هدف جولته ويقصر اهتمامه على تسجيل طبيعة الأجواء الخاصة التي كانت تتكالب عليه من المطابخ كما لو أنها كلاب سائبة. أثناء ذلك كان يتعثر بالأطفال الباكين، فيستسلم، ويعتذر بأدب للأمهات الغاضبات، ويظهر احتراماً بالغاً للعجائز والشيوخ الصاميتن القابعين في زوايا غرفهم كلما شعر بأنه قد تسبب في ازعاجهم.

وشيئاً فشيئاً، عندما ينتشر الظلام في الممرات والدهاليز، تخرج له من كل باب يطرقه المرأة البدينة ذاتها، والأطفال الذين يبكون

ويصرخون في وجهه، إضافة الى الشيخ العجوز نفسه القابع في الخلف بعينيه المذعورتين المتسائلتين والعاجزتين عن الإدراك. هنا يهرب إيفالد تراجي بأنفاس متقطعة، وبعدما يستريح يرى نفسه أمام طاولة الكتابة السحيقة القدم بجاروراتها اللامعدودة، في تلك اللحظة يبدأ بالكتابة الى أبيه:

(عزيزي بابا، سكني هو: فنكن شتراسه ١٧، لدى السيدة شوستر.) ثم يمعن التفكير لحظة طويلة قبل أن يقرر اتمام الرسالة يوم غد.

في الفترة اللاحقة كان نادراً ما يستخدم طاولة المكتب، وقد أمضى أسابيعه الأولى يتجول في الخارج معظم الوقت، بلا خطة أو برنامج منتظم، تحت ظل إحساس مستمر: نعم؛ ماالذي أريده فعلاً؟

وبدأ آنذاك يزور الأروقة والمعارض الفنية؛ إلا أن اللوحات المعروضة كانت قد خيبت أمله. وذات مرة اشترى (دليل مدينة ميونخ) فأصابه الارهاق من كثرة التجوال. وفي الأخير حاول أن يتصرف وكأنه مقيم هنا منذ أعوام، بيد أن هذا القرار لم يكن سهلاً. في أيام الآحاد كان يخالط الناس المتبرجزين الذين كانوا يجتمعون في حديقة مصنع للبيرة لينطلق من هناك الى (مروج أكتوبر)، حيث تشرع الدكاكين والأكشاك الدائرية أبوابها. في وقت الأصيل كان يستقل عربة الأجرة الى (الحديقة الانجليزية). أحياناً كان يمضي هناك ساعة من الوقت لايمكن نسيانها، مابين الخامسة والسادسة، الى أن تتخذ الغيوم في السماء العالية شكلاً ولوناً فنطازيين، فتتراكم فوق بعضها فجأة، وتصبح كالجبال خلف أرض (الحديقة الانجليزية) المعشوشبة المسطحة، حيث يضطر المرء الى التفكير في أنه سيتسلق هذه القمة في الغد؛ ثم يأتي يوم الغد ممطراً فيطبق الضباب على الطرقات كثيفاً وثقيلاً. وكان دائماً مايحلّ غد جديد وينتشل الأشياء من اليد، فينتظر

الشاب تراجي، لعلّ تغيّراً ما قد يطرأ على الطقس. بيد أن ليس هناك أحد يستطيع أن يسأله: ماالذي يفعله المرء في حالة مشابهة لحالته!

عندما تجلب له صاحبة الدار أفطار الصباح كان يتبادل معها عشر كلمات، وفي كل مساء، حين يلتقي بزوجها الحوذي الذي يقود عربة الكونت، يحييه بأدب جمّ. كان يعلم أن لهذين الزوجين ابنة، وكثيراً ما كان يسمع عبر الجدار، حين يسود الصمت، نداء «ماما» ، يتبعه صوت فتاة رقيق. لقد كانت تقرأ شيئاً ما، فيعتقد أنها كانت تقرأ قصائد.

دفعه هذا الإعتقاد الى أن يعود مبكراً الى غرفته، ويحتسي الشاي، ويبقى يقظاً حتى وقت متأخر من الليل، ساهراً على عمل ما أو كتاب. كان كل مرة، حالما يسمع الصوت، يبتسم، فتبدو له غرفته لطيفة، قريبة على نفسه، حتى صار يعتني بها، ويأتي بالزهور الى الدار، ويتحدث بالنهار دائماً بصوت عال وكأنه أصبح بلا أسرار أمام هذه الجدران الأربعة.

وبغض النظر عن الاهتمام المتزايد والجهد اللذين أظهرهما؛ فإن ثمة شيئاً بارداً، وينطوي على جفاء، ظلّ عالقاً في الموجودات، وكثيراً ما انتابه في المساء إحساس بأن أحداً ما كان يسكن الى جواره، ويستخدم الحاجيات نفسها، متجاهلاً وجوده، بل أن هذه الحاجيات كان تعرض نفسها له بكل طواعية. وقد تعزز هذا الإحساس من خلال الحادثة التالية:

«عجيب» ، قال إيفالد ذات صباح، حالما وضعت السيدة شوستر القهوة على الطاولة، «انظري، رجاءً، الى هاتين الجارورتين فوق طاولة الكتابة؛ إنهما لاتنفتحان، فهل لديك ربما مفتاح لهما؟ وألا فيمكن أن يُصنع لهما مفتاح خاص؟!» ثم أخذ يحرك صندوقي المكتب الصغيرين الغامضين.

«أرجو أن تسامحنا» ، ردّت عليه السيدة شوستر بتردد، مستخدمة الألمانية الفصحى وهي في حالة توتر واضطراب، ثم أضافت «لكنني لاأستطيع فتح الجارورتين، لأن-» فتطلع تراجي إليها بدهشة، لكنها تابعت كلامها: «يجب أن تعلم ياسيدي أن الأمر كان هكذا: ذات مرة أقام عندنا سيّد كان في وضع سيء جداً. ولأنه لم يتمكن من تسديد الايجار فقد ترك لدينا المكتب القديم وقال: توجد في الصندوقين أوراق مهمة، سأتركها هنا رهناً. هذا ما قاله ثم أخذ المفتاح معه ورحل. . . »

فنطق إيفالد بعدم اكتراث «هكذا إذاً! وهل حدث ذلك منذ زمن بعيد؟»

بدأت المرأة تفكّر: «قبل سبعة أو ثمانية أعوام- صحيح، بالضبط- منذ ذلك الوقت لم نسمع عنه شيئاً، لكنه يمكن أن يعود ذات يوم، صحيح؟! لاأحد يعلم. . . »

«طبعاً، نعم» ، قال إيفالد مؤكداً ثم التقط قبعته وخرج. لقد نسي تماماً أن يتناول إفطاره.

منذ ذلك اليوم بدأ تراجي يشتغل على الطاولة البيضوية التابعة للأريكة، بعدما وضعها بشكل عرضي أمام النافذة الأخرى؛ إذ أن أكتوبر كان يتقدم بخطى حثيثة، بينما كان المكتب قريباً جداً من زجاج النافذة. وهكذا فقد فُسّر هذا التغيير بطريقة طبيعية تامة.

كانت هناك أشياء أخرى، وجدها الشاب تصب في مصلحة المكان الجديد، منها على سبيل المثال: إن المرء كان ينظر مباشرة، وبصورة مستقيمة، من النافذة الى الخارج، حيث الفناء الذي كانت تذوي فيه أشجار الكستناء ببطء. (هل كانت كستناء حقّاً؟) وثمة بئر حجرية قديمة، مازال الماء يتدفق منها مثل أغنية ترافق الموجودات كلها، بل كان هناك مايشبه النقش البارز على قاعدة العمود الذي انتصب فوق

البئر. آه، لو أنه استطاع رؤية ما كان يمثلهُ الحفر الخشبي هذا. كم بدا الظلام موشكاً! فكان عليه آنذاك أن يوقد السراج. بالمناسبة: عندما كانت الريح تهدأ في الخارج، مثلما هي الآن؛ فإن الأوراق كانت تتساقط على مهل وببطء يثير السخرية. بيد أن هناك من بقي ثابتاً في الهواء الثقيل الرطب، ليتطلع ويتطلع الى الداخل- وكأنه وجوه، وجوه، وجوه...

كان تراجي يتخيّل ذلك، فيجلس بحذر، وبلاحراك، ثم يترك الأمور تجري حسبما تشتهي، فيتراءى له أن شخصاً كان يتكىء على النافذة ويحملق في داخل الغرفة، لدرجة أن أنفه كان ينضغط على الزجاج، ويتخذ شكلاً مفلطحاً عريضاً ونهماً، مثل أنف مصّاص الدماء. فكانت نظرات إيفالد التائهة تتعقب ملامح ذلك الوجه وخطوطه، حتى تنهار دفعة واحدة في العينين المترصدتين كما لو أنها سقطت في هوّة، فيستعيد وعيه من جديد، ويثب وثبة واحدة ويكون عند النافذة. بيد أن مزلاج النافذة لايطاوع على الفور يديه المرتجفتين، فيتناءى ذاك الذي كان يقف في الخارج حالما يطل تراجي متكئاً على الضباب.

يبدو أن الهواء البارد قد هدأ من روعه قليلاً؛ فهو، على أية حال، لم يقم بعمل خارق للعادة، فأوقد السراج وهيّأ الشاي مثلما كان يفعل كل يوم، وبوسع من يراه أن يعتقد بأن الكتاب الذي كان مفتوحاً أمامه قد حظي باهتمامه.

غير أن هناك أمراً واحداً كان يدعو الى العجب وهو: إن تراجي لم يكن يذهب الى فراشه لينام، إنما لينتظر انطفاء السراج، وذلك يحدث حوالي الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، فكان يوقد شمعةً ويظلّ يراقبها بصبر حتى تذوب تماماً في الشمعدان، فيشع بريقها متردداً من وراء الزجاج.

لقد كانت ليلته قصيرة، أليس كذلك؟! فلم يفكّر إيفالد فيما إذا كان عليه الإنتقال الى سكن آخر؛ لأن هذه مسألة طبيعية، إنما فكّر فقط: كيف يعبّر عن هذه الرغبة (إنني آسف، ياسيّدة شوستر)، أو: (إنني فعلاً مرتاح عندكم، لكن...) ثم يبني وينشيء عبارات جديدة فوق هذه الجملة البائسة الواهية.

في الصباح كان يصل الى قناعة بأنه غير قادر على التفكير في اخلاء الشقّة؛ لأن تلك الفكرة لايمكن التعبير عنها بأي وسيلة، لذلك فانه سيبقى في مكانه، وعليه أن يتدبر أمره. وهذه هي عادةً طبيعة الغرف التي على تلك الشاكلة. فأولئك الذين سكنوا فيها من قبل لم ينتقلوا بعد خارج المنزل تماماً، بينما مازال الآخرون الذين سيعقبون إيفالد ينتظرون، وما عاد أمامه في هذه الحالة سوى أن يبدو خفيفاً محتملاً. وفي ذلك الأحد بالذات قرر إيفالد أن يكون صغيراً قدر الإمكان، لكي لايزعج أحداً من المؤجرين المجهولين الذين كانوا يشاطرونه الغرفة، ورضي بالعيش معهم بصفته أقل الساكنين أهمية واعتباراً في المجمّع السكني الكبير لفنكن شتراسه.

وفعلاً: لقد سار كل شيء على مايرام، ومرّت بضعة أسابيع لابأس بها، ودخل الناس في شهر نوفمبر بنعومة وخفة، هذا الشهر الذي يمنح، بدلاً من النهار القصير، ليلاً طويلاً، يهب الامكانيات جميعها مجالاً واسعاً للتحقق.

فقام إيفالد في البدء بزيارة الى حانة (لويتبولد)، وكانت تلك خطوة لابأس بها، حيث كان المرء يجلس على طاولة صغيرة من المرمر ويضع الى جانبة حزمة من الجرائد، فيبدو في الحال وكأنه انهمك في القراءة وبشكل مرعب. كانت الآنسة ذات الثياب السوداء تأتي لتملأ في طريقها الفنجان بالقهوة الخفيفة حد الحافة؛ ياإلهي، إنه مليء لدرجة أن المرء لايجرؤ على أن يرمي فيه قطعة سكر. أثناء ذلك يكون أحد

الزبائن قد أوصى بطلب قائلاً: «وسطاً» أو «أسود» فيصبح ماأراد (وسطاً) أو (أسود) حسب الرغبة والإشارة؛ ثم يضيف الزبون عبارة بكل ما لديه من مزاح ودعابة، فتبتسم مينا أو بيرتا ابتسامة متعبة، ذابلة، وبلااكتراث، ثم تطوّح بابريقها المصنوع من النيكل يميناً وشمالاً.

كان تراجي يرى هذه الأشياء تحدث في الطاولات الأخرى، بينما اكتفي هو بالشكر؛ لأن هؤلاء النسوة المتلفعات بالسواد والذابلات الوجوه في عزّ النهار كنّ يبدون له ثقيلات الدم جداً، ماعدا بيتي الصغيرة التي كان تجلب له الماء عادة، والتي كان يرثى كثيراً لحالتها. وتعلم السماء وحدها لماذا أراد تراجي أن يقوم بعمل وديّ من أجلها، فقد دسّ في يدها ذات مرة، الى جانب البقشيش، قصاصة ورق مطوية، وفرح عندما برقت عيناها. كانت القصاصة الصغيرة عبارة عن ورقة يانصيب يعود مردودها الى جمعية خيرية، ويمكن أن تربح خمسين ألف مارك. إلا أن بيتي الصغيرة عندما أطلت بعد لحظة من وراء عمود الخرسانة في ركن الحانة بانت على وجهها خيبة ظنّ، وحين مرقت من أمامه لم تقل له شكراً.

لكن هذه الأمور العرضية كانت تخلف أثراً في نفسية الفتى الشاب أكثر مما كان يعتقد، وقد جعلته يشعر بأنه إنسان مستبعد ومعزول عنوةً؛ إنسان مازال يتصرف حسب تقاليد وأعراف بلد آخر بعيد، بين أولئك الذين كانوا يتفاهمون عبر ابتسامة أو اشارة أو نظرة خاطفة. وتمنّى لو أنه يصبح واحداً منهم، فيخوض معهم في التيار ذاته، حتى أنه اعتقد بأنه قد أصبح واحداً منهم الى حد ما. بيد أن حدثاً طارئاً برهن على أن علاقته معهم لم يطرأ عليها أي تغيير: لقد كان هو في ناحية والعالم الآخر كله في ناحية أخرى؛ وهكذا على المرء أن يعيش!

وفي الوقت الذي رغب فيه تراجي بالتعرف على شخص ما، استلم

رسالة؛ جاء فيها: «سمعت بالصدفة أنك موجود في ميونخ. لقد قرأت بعض كتاباتك وأتصور أن من الممتع أن نرى بعضنا، في بيتك أو في بيتي، أو في أي مكان ثالث، حسبما تشاء- إذا كنت راغباً.»

غير أن تراجي لم يكن راغباً في اللقاء. كان يعرف الاسم الذي ذُيلت به الرسالة منذ زمن طويل عن طريق المجلات والمختارات الشعرية. إنه لم يكن يضمر في الواقع شيئاً مبطناً إزاء فيلهلم فون كرانتس، كلا، أبداً. ومادام هذا السيد هو الذي بادر الى الإحتكاك به؛ فإن تارجي انكفأ على نفسه مثل حلزون، وتحول ماتمناه في الأمس الى خطر الآن؛ لأن أمنيته ستتحقق. لقد بدا له من غير المعقول أن يقتحم أحد ما عزلته دفعة واحدة، وبحذاء مترب، كما يقال، تلك العزلة التي لايجرؤ هو نفسه على اقتحامها إلا بحرج تام. لذلك فانه ليس فقط لم يرد على الرسالة، بل صار يتجنب بحذر أي (مكان ثالث)، مؤثراً البقاء في الغرفة، حتى أنه بات يرى في بعض المناسبات وجه ابنة الدار التي لم يكن يعرف عنها آنذاك سوى صوتها.

ذات مرة، عندما جلبت له القهوة، قال لها: «ماذا تقرأين دائماً في المساء، ياآنسة؟»

«أوه، أقرأ مايقع تحت اليد. ليس لدينا الكثير من الكتب، لكن هل يصل الصوت الى هنا؟»

«حرفاً، حرفاً»، أجاب إيفالد مبالغاً.

«هل يزعجك الصوت كثيراً؟»

فلم يقل تراجي سوى: «كلا، لايزعجني أبداً. لكن إذا كنت تحبين القراءة فسأعطيك مامتوفر لدي هنا. بلاشك انه ليس بالشيء الكثير، لكنه كثير في الواقع!» ثم ناولها مجلداً من أعمال غوته.

كانت هذه مجرد إتصالات صغيرة؛ إلا انها كانت تملأ فراغاً ما في نفس تراجي، ثم تحولت فيما بعد الى فكرة ثابتة وسط حشد هائل من

الأفكار التي كانت تعتمل في روحه وتتدافع حتى أنه كان يستلقي عليها بصفاء تام. عندما تُعير كتاباً مثل ذلك؛ فإن الأمر لايختلف كثيراً عن اهداء ورقة يانصيب. لكن تراجي تلقى هذه المرة عبارات شكر رقيقة، مما جعله يشعر بالسعادة.

وبدا مزاجه معتدلاً حتى في فترة مابعد الظهر؛ لأنه عاد الى الدار بشكل غير متوقع وجلس في غرفته يصيخ السمع. كان في البدء قد أظهر تردداً ثم أخذ ينصت الى الأصوات. كانت أنصاف الكلمات المتعجلة تهرب أمام خطاه، وثمة رجل شاب ذو وجه عريض غليظ كان يقف عند بابه ويصفر لحناً غير عابىء بشيء. وحالما أوشك إيفالد على إستنطاقه، تقدمت صوفيا، خارجة من باب حجرته، شاحبة الوجه، وتصرفت كما لو أن كل شيء كان على مايرام. قالت بارتباك: «إن هذا السيد هنا- يريد أن يرى الغرفة، ياسيّد تراجي.»

فتطلّع الشابان في وجه أحدهما الآخر، ثم توقف الغريب عن الصفير وأدى تحية؛ ولأن الغريب ابتسم بأدب في تلك اللحظة، فقد إزداد وجه سعةً، وأصبح مائعاً غائم الملامح، ما دفع إيفالد فوراً الى التفكير في شيء شديد القبح. وبرغم ذلك شكره على نحو عابر، متحسساً حافة قبعته باصابعه ثم دخل الى غرفته.

بعد لحظة رأى أن صوفيا مازالت تقف عند الباب، فتظاهر فجأة بالانشغال، وأخذ ينقل بعض الحاجيات من طاولة الى أخرى بلا داع، وينحني أحياناً ليرفع حاجة ما. أخيراً انتهى هذا الترتيب البائس، وبات ممكناً أن يسأل الفتاة: ماذا تريدين؟! إذ لايجوز أن تبقى واقفة هكذا دون سبب. خطرت في ذهنه عبارة يمكن أن تقال، فالتفت الى الناحية الأخرى وأطلقها في زاوية ما: «أرجو أن تكوني مطمئنة. سوف لاأتحدث الى أحد حول الموضوع. هل أردتِ سماع هذا الكلام، حقّاً؟ حسناً. لكنني سأنتقل في الشهر القادم، هذه هي غايتي منذ البداية.»

ثم جلس فوراً الى الطاولة وبدا منهمكاً في الكتابة كما لو أنه كان يكتب منذ ساعتين. لكن ماكتبه كان مجرد رسالة قصيرة الى السيد فون كرانتس يرجوه فيها أن يحضر غداً الى (لويتبولد) في الساعة الرابعة عصراً، إذا ما وجد الوقت مناسباً. وبعدما انتهى من وضع العنوان التفت حول نفسه بحذر. غير أن لاأحد كان في الغرفة، فغيّر إيفالد حذاءه وبذلته؛ لأنه أراد أن يتناول عشاءه خارج الدار.

***

كان موعد اللقاء مناسباً بالنسبة للسيد فون كرانتس؛ وسيكون مناسباً أيضاً لو أنه تمّ في أي ساعة أخرى، لقلة مشاغل كرانتس . كان يكتب آنذاك موضوعاً هائلاً، ملحمةً أو شيئاً أكبر من الملحمة، على أية حال شيئاً جديداً مبتكراً، (ذروة عليا) مثلما أكد لصاحبه الجديد في نصف الساعة الأولى. لكن عملاً كهذا يتوقف كما هو معروف على الالهام، وعلى التحمّس العميق الذي يحقق (حسب اعتقاد السيّد فون كرانتس) «حلم العصور الوسطى الغامضة الدفينة، وعندما يفهم المرء كيف يصنع من الأشياء المألوفة ذهباً خالصاً.» وحالة كهذه لاتأتي إلا بعد منتصف الليل، أو في أي وقت آخر غير معقول، وليس في الرابعة عصراً، أي في الوقت الذي تحدث فيه أكثر الأشياء اغراقاً في العادية، لذلك؛ فإن السيد فون كرانتس كان يجلس متفرغاً تماماً في (لويتبولد) قبالة تراجي. إنه رجل كثير الكلام، مفوهاً، مقارنةً بإيفالد الكثير الصمت، وكرانتس لايحب الصمت كما هو واضح. كان يعتبر الصمت من الحقوق الأوّلية للمعزولين المنفردين، لكن عندما يجتمع شخصان أو ثلاثة تنتفي تلك الحقوق، أو تصبح على الأقل بلا معنى يُدرك منذ النظرة الأولى. المهم هو أن لايكون ثمة غموض والتباس، في الحياة على أقل تقدير. وفي الفن؟ أها، أن هذه قضية مختلفة، فعلى المرء أن يستخدم الرمز هنا، أليس كذلك؟ ثمة

معالم معتمة أمام خلفية مضاءة، وإلا؟ صور محجبة– حقاً؟ لكن في الحياة– تكون الرموز، أوه– إنه لشيء مضحك!»

أحياناً كان إيفالد يقول «نعم» فيتعجب بعد ذلك: من أي بقعة من العالم جاء هذا الكم الهائل غير المستعمل من ال (نعم)، ويتعجب أيضاً من الكلمات الطنّانة والحياة الصغيرة التي كانت ترقد تحتها. لقد تعرف في ذلك اليوم على نظريات السيد فون كرانتس، تلك النظريات الكونية الشاملة القادمة من علوّ يشبه منظور الطير– فأصابه العجب فعلاً؛ لأنه كان شاباً في مقتبل العمر، ينظر الى الأشياء باعتبارها حقائق ثابتة، والى الأحداث الخارقة باعتبارها مصائر، حتى أنه كان يشعر بحاجة الى تدوين بعض تلك المذاهب البرّاقة التي من غير الممكن الاحاطة بسياقها العام كله حسب تصوره. بيد أن أشد ماأثار دهشته هو القناعات الجاهزة التي رصف بها كرانتس معلوماته واحدة الى جانب الأخرى، بسهولة تامة، وبلا مبالاة كما لو أنه كان يضع بيضة الى جانب أخرى، وحالما تحيد واحدة عن الصفّ؛ فإن ضربة خفيفة واحدة على سطح الطاولة تكون كافيةً– فتصطف.

في الواقع، من الصعب البتّ فيما إذا كان مايقوم به كرانتس مجرد مهارة أم خفة أم قوة؟! إذ أنه في الحقيقة رجل صريح العبارة، وكان يتحدث بصوت مرتفع وكأنه نسي المكان الذي جلس فيه، فتقتحم خطبته جميع الأحاديث الأخرى مثلما يقتحم الاعصار نوافذ غرف الغرباء فيفتحها عنوةً، فيجد المرء نفسه مضطراً الى الإستسلام والى ترك النوافذ مشرعة؛ لأن الاعصار مازال يقف متأهباً لاقتحامها. لقد نسيت «مينا» الجميلة أن تملأ الكؤوس ثانية واتكأت على عمود الخرسانة، لتنصت الى لحديث، لكن –مع الأسف– بعينين وقحتين. فجأة قبضت بهاتين العينين الخضروايـن الواسعتين على نظرات الشاعر الخاطفة، وكبحت جماحها وقهرتها حتى جعلها صغيرة مهانة ثم

طرحتها أرضاً بابتسامة خبيثة. آنذاك فقد السيد فون كرانتس توازنه، وصار يترنح في سرجة؛ إلا انه سرعان ماتصنع التخاتل والتمايل ثم رمى الفاتنة بكلمة دبقة كانت أشبه بالضفدعة منها الى الزهرة، وعاد الى صلب الموضوع، بل أنه وصل الى ذروته، في الواقع الى الحد الذي قال فيه: «كيف أنني تجاوزت نيتشه!»

في تلك اللحظة بالذات توقف تراجي تماماً عن الإصغاء. لقد اكتشف ذلك متأخراً، بعد أن وصل كرانتس الى نهاية فقرة وبقي ينتظر. كان هذا الانتظار يعني: وحضرتك؟ لابد أن يكون لحضرتك شيء ما يسمّى رأياً حول هذه الأمور بمجملها، حسبما نأمل! فاتحفنا بنظرة كونية شاملة بعد أخرى، رجاءً؟

إلا أن تراجي لم يفقه هذه الأحاديث في وقتها، وعندما أدرك مغزاها في آخر المطاف وقع في إضطراب لايوصف، فوجد نفسه يقف في المنتصف، في منتصف الغابة، حيث لم ير سوى الجذوع، فالجذوع، ولاشيء سوى الجذوع، ولم يعد يعرف فيما إذا كان ليلاً أم نهاراً هذا الذي قد باغتهم على حين غرّة. ومع ذلك كان عليه أن يتذكر الوقت بدقة، حتى الدقيقة الأخيرة، لكي لايدع مجالاً للشك. كان يخشى أن يجرح بصمته مشاعر السيّد فون كرانتس الذي غالباً ما يزداد وداً ولطفاً في مثل هذه المواقف، وتبدر منه عاطفة أبوية، فيأمر بسرعة: «الحساب!» . نعم؛ لقد كان يتمتع بكل هذا القدر من الرهافة.

وفي الأيام اللاحقة كان تراجي يشعر طوال الوقت، وبوضوح مستمر، بأن عليه أن يظهر لصاحبه الجديد بعضاً من أشيائه، ليس تعاطفاً، إنما لأنه أصبح مديناً له فيما يتعلق بالثقة المتبادلة التي تجلّت بعد ذلك المساء الشديد السخاء.

عندما ذهبا معاً ذات مرة الى (الحديقة الإنجليزية) -كان الجو مكفهراً قاتم العتمة كما في المرة السابقة، وقد تراكمت جبال الغيوم في

الأفق، قال إيفالد دون تمهيد: «كنت وحيداً معزولاً دائماً، وقد خرجت من البيت في سنّ العاشرة لألتحق بمدرسة (التربية العسكرية) بين خمسمئة زميل منتسب، وعلى الرغم من ذلك كنت تعيساً تماماً- خمسة أعوام كاملة. بعد التربية العسكرية حشروني في مدرسة أخرى وثالثة وهكذا. كنت دائماً وحيداً؛ هل تفهمني حضرتك...» فإذا لم يكن لديه مايضيفه فأن السيّد فون كرانتس يهبّ الى نجدته. ومنذ ذلك الحين لم يعد ينفصل لحظة واحدة عن إيفالد، في الصباح الباكر وفي الضحى والى ساعة متأخرة من الليل. وكان يفعل ذلك ببداهة حتى أن تراجي أصبح عاجزاً عن تحصين عزلته. إن كرانتس كان محقاً بلا ريب؛ لأن، وكما أدعى ذات مرة: «مصيرنا واحد ياصديقي العزيز تراجي! فأنا أيضاً لايفهمني أحد في البيت، طبعاً. إنك تحسبني غريب الأطوار، مجنوناً، كما لو أنني...» ولم ينس كرانتس في مناسبات كهذه الإشارة الى أن أباه كان ضابطاً مستشاراً في ديوان أحد الأمراء الألمان الصغار، حيث أن المرء هناك — يبدو أن كرانتس كان ينظر الى تلك الدواوين باحتقار — يحمل الآراء المحافظة التقليدية المعروفة. كما أن تخرجه برتبة ملازم ثان يعود بالدرجة الأولى الى تلك الآراء؛ ويجب على المرء أن يتصوره ضابطاً برتبة ملازم في الحرس الخاص. وأكّد أن عودته الى صنف الإحتياط بعد عام قد كلفه جهداً خارقاً، متجاهلاً تعاطف الرؤوساء والمرؤوسين وحبّهم له على السواء. إنه ليس بحاجة قط الى تأكيد عدم إتفاقه مع الخيار الوظيفي المهني الجديد، حيث يجلس في قصر (زيفيز-كرانتس) ويلقي بالعصا تحت قدميه. ومع ذلك؛ فإنه لم يتوقف عن مواصلة الكفاح، بل فعل العكس تماماً. فأقدم على إعلان خطوبته رسميّاً. نعم؛ وقد نشر خبر الخطوبة في صحيفة الإعلانات. كانت الخطيبة تنحدر من أسرة عريقة النسب، وجيهة، بطبيعة الحال، حسنة التربية،

ليست ثرية، لكنها نبيلة الى حد ما. (أمها الكونتيسة فلانة بنت فلان.) كانت تلك الخطوة التي أقدم عليها دون لفّ أو دوران دليلاً ساطعاً على حريته، نوعاً ما. واشترط آنذاك أن يتم القران في وقت قريب. وبعد القران بفترة قصيرة تحقق النجاح الساحق، وهو: «خروجي من الكنيسة!» ثم فتل كرانتس شاربه الأشقر، مبتسماً، وأضاف : «أجل» ، وقد ظهر عليه الإرتياح العميق لما قاله، ولدهشة تراجي أيضاً، «فيالها من ضربة قاصمة؛ ماذا؟ لقد تنازلت عن رتبتي العسكرية؛ طبعاً، ضحيت بها من أجل قناعاتي الشخصية. إن الإنتماء الى جماعة معينة دون الإلتزام بقوانينها ومراعاة أصولها يعتبر بحد ذاته خيانة ذاتية . . . »

خطرت عبارة (خيانة ذاتية) في ذهن تراجي ذات مرة بعد منتصف الليل، فوجدها عبارة جاهزة، واضحة، وشديدة التجاوز. ومنذ ذلك الوقت أخذ يتذكر كل ليلة تقريباً هذه الفقرة أو تلك من أحاديث كرانتس، فكانت تبدو له صائبة، دقيقة المعنى. ولم يمض كثير من الوقت حتى ظهرت نتائج تلك الأحاديث.

ففي صباح من صباحات تشرين الثاني ذاته، استيقظ تراجي ورأى نفسه يحمل نظرة كونية شاملة. كانت حقاً نظرة كونية شاملة ومن المستحيل انكارها. لقد أشارت جميع الدلائل والعلامات الى وجودها. بيد أنه لم يكن يعلم وقتها لمن كانت تعود تلك النظرة؛ ولأنه هو الذي عثر عليها في نفسه، فقد افترض أنها ستكون في هذه الحالة ملكاً له وحده. ومن البديهي أنه سيحملها معه في المرة القادمة الى حانة (لويتبولد) . وحالما أظهرها، أصبح له خلال لحظات عدد لابأس به من المعارف الذين لايختلفون كثيراً عن الأصدقاء، والذين انغمروا فوراً في الحديث عن قصائده التي يعرفها الجميع، وأخذوا يقدمون له السجائر كل خمس دقائق: «خُذْ، خُذْ، ياحضرة السيّد!» ولم يبق أمامهم سوى

أن يربتوا على كتفه، ويرفعوا الكلفة بالقول «أنتَ» بدلاً من «حضرتك». إلا أن تراجي لم يكن يدخن السجائر، مع أن التدخين كان له علاقة ما بنظرته الشاملة، تماماً مثلما هو شراب (الشيري) المنتصب أمامه والذي كان يتمنى لو أنه أمضى المساء معه في صالات الزهور، حيث كانت المطربة الشهيرة برانيكا تصدح بأغانيها.

فجأة ادعى أحد الحاضرين بأن كرانتس كان يعرفها معرفة جيدة، هذه البرانيكا. «كيف؟»

فرفع كرانتس منكبيه الى الأعلى ولفّ شاربه، وأصبح على الفور ملازماً، يحمل لقب النبيل (فون) كرانتس. ثم جاد أحد آخر بنكتة: «بلى؛ بعد الساعات التي يمضيها مع عروسته؛ فإنه يحتاج الى ترفيه.» فضجّ الحاضرون كلهم بالقهقهة؛ إذ أنهم وجدوا النكتة صائبة، (محترمة)، حسب المصطلح الفني المخصص للنكتة الجيدة، وكما يسميها كرانتس شخصياً.

كان تراجي يشعر بالطمأنينة والارتياح بين أولئك الشبّان الذين كانوا يحملون فيضاً من الألقاب النبيلة، بينما كان يكفي في كل الأحوال أن يحملوا بدلاً منها أرقاماً لغرض التفريق بينهم. في الحقيقة لم يكن رأي كرانتس برفاقه الذين يعاشرهم يومياً ينم عن تقدير بالغ، إنما كان ينظر إليهم باعتبارهم خلفية معينة لشخصيته. وإذا ماسأله تراجي عن واحد منهم؛ فإنه يجيبه بشكل عرضي: «هذا؟ لايعرف المرء بعد، فيما إذا كان يتحلى بموهبة، ربما!» ثم يختار هذا الموضوع مدخلاً لحديث متشعب عن (مهمات الفن) و (المستلزمات التقنية للمسرح الدرامي) أو (ملحمة المستقبل). كان تراجي يشعر حينئذ بأنه عديم الخبرة أيضاً، وغير قادر على خوض نقاش متكافىء؛ لأنه كان نادراً مايعترض أو يأتي برأي مغاير. وإذا ما كان جهله بالأمور الأخرى يسبب له احرجاً وقلقاً؛ فإن جهله بهذه الموضوعات الكبرى أصبح مثل

درع واق، يخفي وراءه شيئاً ما حميمياً، قريباً الى قلبه، لكنه كان لايعرف ما هو ذلك الشيء بالضبط، ليحميه من خطر غريب محدق، دون أن يعلم أي خطر كان ذلك. كان يخشى من اطلاع رفيقه على ما كان ينجزه في ساعة من ساعات الهدوء؛ وكان نادراً مايقرأ له بضعة مقاطع من قصائد خاوية، باهتة، بنصف صوت باك، غير واع، ثم يندم في الحال، ويخجل حتى من تصفيق الإستحساناً الذي كان يطلقه الآخر الصاخب الشديد القسوة. لقد كانت قصائده مريضة، وفي حضرة المريض يجب أن يخفض الزائر صوته. وبالمناسبة؛ لم يعد أمام تراجي متسع من الوقت للتستر والتكتم. لقد احتشدت أمور كثيرة في أيامه، لكنه، على الرغم من ذلك، أصبح يتقدم بسهولة أكبر من السابق؛ لأن تلك الانشغالات كانت فارغة المحتوى، لايركن إليها المرء بسهولة. كانت هناك أيضاً واجبات صغيرة ومواعيد يومية مع كرانتس وحلقته؛ إنشغالات خالية من المعنى، وأحاديث يمكن أن تنتهي عند أي نقطة حسب الرغبة؛ إنشغالات يعوزها الانفعال والقلق، ولم تكن أكثر من مجاراة لامكان فيها للإرادة الذاتية. بيد أن هناك خطراً حقيقياً واحداً ظلّ قائماً، إنه: العزلة- وكان كل واحد من أولئك يفهم كيف يحمي الآخر من وطأتها.

كان هذا مجمل ماحدث آنذاك، الى أن جاء المساء الذي اتخذ فيه السيّد فون كرانتس موقعه في (لويتبولد) وبدأ يشرح نقطةً ما لتراجي، مظهراً اهتماماً إستثنائياً أكثر مما مضى: «طالما لم نصل الى هذه النقطة؛ فإن كل شيء سيبقى بلاقيمة؛ إذ أننا نحتاج الى ذروة الفن، ياصديقي العزيز، الى الذروة التي تتجاوز الآلاف؛ نحتاج الى علامات تضيء فوق الجبال كلها من بلد الى بلد؛ نحتاج الى فنّ مثل النداء، الى فن منذر...»

«هراء» ، قال أحد ما خلفه، فهبطت العبارة مثل ملاط رخو منقوع،

ساح على بلاغة الشاعر الألمعية وغطاها برمتها. انطلق (الهراء) من رجل قصير أسود الشعر، كان يجذب نفساً طويلاً من عقب سيجارة، أوشك تبغها على النفاد، فتوهجت عيناه الواسعتان السوداوان بتوهج الرماد وانطفئتا بانطفائه. ومضى الرجل في طريقه بهدوء، فنادى عليه السيد فون كرانتس من الخلف بغضب: «طبعاً، يا تالمان» وأضاف متجهاً الى إيفالد: «أنه رجل جلف، غير مؤدب. يجب أن يخضع في إحدى المرات الى إستفسار واستجواب؛ رجل خارج على الأعراف والأصول. لايمكن أن يحسب له أي حساب أبداً. ومن الأفضل تجاهله-» ثم واصل بمزاج رائق مداخلته حول الذروة، غير أن تراجي وحده أظهر مقاومة شديدة، غير متوقعة، وظل يسأل باصرار: «من هو هذا؟»

«يهودي، ساقط من عشّ ما، يكتب روايات حسبما أظنّ. واحد من المخلوقات المشبوهة المشكوك فيها، يوجد هنا العشرات من أمثاله، نعم العشرات. لايعلم أحد من أين جاء هؤلاء اليوم، والى أين سيذهبون بعد غد، حيث لايخلفون سوى بعض القذارة. يجب أن لاتخدع نفسك بهذه الحركات ياعزيزي تراجي...»

ثم أصبح صوته جزعاً وذلك يعني: دعنا من هذا الموضوع مرة واحدة والى الأبد؛ فبدا تراجي متفهماً تماماً، ومتأهباً لكي لايُخدع، مرة ثانية.

ومع ذلك كان المساء برمته عبارة عن مشهد أوّل؛ إذ أن إيفالد لم يستطع نسيان كلمة (هراء) المضحكة التي هبطت على النبيّ المتحمس ثقيلةً واسعةً والتي، وكان هذا أسوأ ما في الأمر، ظلّ هبوطها يُسمع كلما تعالى تصفيقها من الأسفل، إثر كل اعتراف كبير أدلى به فون كرانتس، فكان إيفالد يرى في ذاكرته الرجلَ الداكن السحنة بمنكبيه العريضين وجاكيتته الرثة ماثلاً أمامه ويبتسم. بعد أسبوع التقى به

مساءً في صالات الزهور وهو في الهيئة ذاتها، فكان من الطبيعي أن يتقدم نحوه ويحييه. ويعلم اللّه وحده لماذا أقدم تراجي على ذلك، لكن الآخر أيضاً لم يظهر دهشةً من هذا التصرف، إنما سأله:

«هل أنت مع كرانتس هنا؟»

« سيأتي كرانتس فيما بعد. »

وبعد فترة صمت، بدأ من جديد قائلاً: «ألا يبدو كرانتس في نظرك شخصاً رقيق الحاشية؟»

فهزّ تالمان رأسه تحيةً لأحد ما في الطابق الأرضي، وأجاب على نحو عرضي: «رقيق الحاشية؟ دعك من هذه العبارات الفارغة. إنها تبعث القرف في نفسي. »

«وعدا ذلك، ألا تشعر بالقرف؟» كان تراجي منفعلاً نتيجة أسلوب الإزدراء الذي استخدمه هذا الآخر.

«كلا، لاوقت لدي لمثل هذه الأشياء. »

«ومع ذلك تأتي الى هذا المكان؟»

« كيف؟ »

«ألا يأتي المرء الى هنا بسبب القرف؟!»

«الآخرون ربما، أما أنا فلا. »

تعجب تراجي من نفسه لعناده والحاحه، فلم يستسلم:

«إذاً، لابد ان تكون لك مصلحة. . . »

«أبداً»، نفى الرجل ذو الشعر الأسود ومضى في طريقه، فتبعه تراجي: «إنما؟»

التفت تالمان التفاتة قصيرة:

«إنما الشعور بالشفقة والعطف. »

«على من؟»

«عليك أنتَ قبل كل شيء. » ثم خلّف تراجي وراءه وحيداً، وتابع طريقه، مثلما فعل آنذاك في «لويتبولد. »

وصل إيفالد الى غرفته في الساعة الحادية عشرة مساءً، ونام نوماً سيئاً. وفي اليوم التالي كان الثلج قد هطل، ففرح العالم كله بذلك الحدث، وبدأ أولئك الذين كانوا يلتقون ببعضهم في الشوراع يبتسمون ويقولون بسعادة: «سيبقى فترة طويلة يغطي الطرقات.» في ذلك اليوم عثر إيفالد على تالمان في زاوية شارع تيريزين، فسارا معاً مسافة طويلة، وقد ساد الصمت بينهما الى أن افتتح إيفالد الحديث:

«حضرتكَ تكتب؟»

«نعم، أفعل ذلك أحياناً.»

«أحياناً؟ أليست هذه وظيفتك الأساسية؟»

«كلا.»

«ماالذي تمارسه إذاً، لو سمحت لي بالسؤال؟»

«المراقبة.»

«ماذا؟»

«المراقبة والأشياء الأخرى- كالأكل والشرب والنوم، وأفعل ذلك من وقت الى وقت، ولاشيء آخر يثير الإهتمام.»

«أعتقد بأنك تستخدم أسلوباً ساخراً، وبلا توقف.»

«هكذا؟ أسخر من ماذا؟»

«من كل شيء، من الله والعالم.»

هنا توقف تالمان عن الإجابة وابتسم: «وأنت، يبدو أنك تكتب قصائد كثيرة؟»

فامتقع وجه تراجي وأصابه الوجوم، ولم يعد قادراً على النطق بكلمة واحدة، بينما كان تالمان يبتسم ليس إلا. بعد حين أجبر تراجي نفسه على القول وهو يرتجف من البرد: «هل تعتبر هذا عيباً؟»

«كلا؛ إنني لاأضع اعتباراً لأي شيء. لكن هذا ليس موضوعنا.

والآن يجب أن أصعد الى الطابق الأعلى.» ثم أردف في مدخل البناية «الى اللقاء! لعلّك على حقّ فيما يتعلق بالسخرية.»

أصبح تراجي وحيداً من جديد، وتذكر يوم غادر أهله عندما كان صبيّاً مدللاً في العاشرة من عمره، ليدخل في أجواء قاسية شديدة الجفاء؛ فشعر الآن بالرعب والعجز والاضطراب معاً، مثلما كان يشعر آنذاك. إنها الحالة ذاتها دائماً وأبداً كما لو أنه كان يفتقد الى شيء ما يجعله قادراً على الحياة، الى عضو جسماني ضروري لايستطيع التقدم خطوة واحدة بدونه؛ وإلا فلمَ كل هذه المحاولات المتواصلة؟

رجع الى غرفته متعباً وكأنه عاد من رحلة شاقة، لايعرف ماالذي يفعله بنفسه، وانهمك على الفور في تقليب ومراجعة الرسائل والذكريات القديمة، ثم قرأ تلك القصائد الأخيرة الهامسة التي لم يطلع عليها حتى السيد فون كرانتس، فرأى نفسه فيها، وتعرف على ذاته ثانية ببطء، ملمحاً بعد آخر، كما لو أنه كان مبعداً زمناً طويلاً. وبفعل نشوة الفرح الأولى كتب رسالة الى تالمان، مفعمة بالشكر والاعتراف بالجميل:

«إنك على حقّ تماماً» ، جاء في الرسالة، «لقد كنتُ إنساناً مزيفاً مجوفاً، أصغي الى العبارات الطنانة الفارغة، أمّا اليوم؛ فإنني أرى كل شيء وأدركه تماما الإدراك. لقد أيقظتني من حلم مرعب؛ فكيف أستطيع أن أشكرك على ذلك، حيث لايمكنني إلا أن أبعث لك بهذه الأناشيد التي هي أعز ماأملك وأشده سريّة وخصوصية»

حمل تراجي الرسالة والقصائد بنفسه الى عنوان تالمان؛ لأنه لم يكن واثقاً من البريد. كان الوقت متأخراً وكان عليه أن يصعد أربعة سلالم في الظلام، ويتحسس الجدران، حتى وصل الى المرسم في غيزلاشتراسه حيث سكن تالمان. رآه يكتب في الثقب البائس الذي هو في الواقع مجرد اطار أحاط بالنافذة الشمالية الكبيرة المائلة. كان هناك سراج

منبعج يبعث ضوء من موضع مرتفع وسط الليل، لكن قوته كانت أضعف من أن تنير الموجودات الكثيرة المتناثرة بفوضى شاملة، بحيث تجعل التفريق بينها ممكناً.

رفع تالمان السراج مباشرة في وجه الداخل: «أها، هذا أنت؟» ثم زحزح كرسيه أمام إيفالد. «هل تدخن؟»

«كلا، شكراً.» فقال تالمان:

«لاأستطيع أن أحضر لك القهوة. لقد انتهى الوقود. إذا أردت فيمكنك أن تقاسمني قهوتي.» ثم وضع بينهما وعاءً بلا مقبض، وانتصب واقفاً، شابكاً ذراعيه، يدخن ويراقب بهدوء وعدم اكتراث؛ فلم يجرؤ تراجي على أن ينبس بكلمة واحدة.

«لعلّ لديك ماتقوله لي؟» قال وتناول تالمان جرعة من القهوة ومسح فمه بظاهر يده.

«لقد جلبت لك شيئاً معي-» تشجّع إيفالد على القول. لكن الآخر لم يتحرك من مكانه: «أها!؟ ضعه هنا. سأطلع عليه في فرصة مناسبة. ماهو هذا!؟»

«رسالة-» قال تراجي متردداً. «ويمكن أن تقرأها الآن، رجاءً.»

فضّ تالمان الظرف بحركة واحدة، وبلامبالاة واضحة، ثم حشر السيجارة بين أسنانه، وبدأ يقرأ بشكل عابر وبلا تروّ، وهو يضيّق عينيه ويغمز عبر الدخان. وقد وقف إيفالد من فرط الإنفعال، منتظراً ماسينطق به تالمان . لكن أي شيء لم يتغيّر في ذلك الوجه الشاحب للرجل الداكن السحنة، ماعدا الدخان الذي بدا يضايقه بشده. أخيراً هزّ رأسه: «نا، نو، الى آخره!» والتفت الى تراجي: «سأكتب لك في مناسبة ما عن هذا الموضوع؛ لأنني لاأحب الحديث المباشر عنه.» ثم احتسى قهوته في جرعة واحدة. أثناء ذلك ارتدّ إيفالد الى الكرسي وجلس وأخذ يقاوم، باذلاً جهداً كبيراً لئلا تنهمر الدموع من مآقيه،

وشعر بالاعصار يجتاح جبهته، متوغلاً في الليل عبر الزجاج الهائل للنافذة.

ثم حلّ الصمت.

وبعد حين سأل تالمان: «هل تشعر بالبرد؟ إن جسمك يختض.»

هنا أخذ زجاج النافذة يهتز بصوت خافت وبغموض كلما خفقته الريح، ويصدر صوتاً مثل صوت تثلّم الجليد الشديد الانجماد في النهر.

قال تراجي:

«لماذا تعاملني هكذا؟» وبدا فجأة مريضاً وحزيناً بشكل غير مألوف. هنا بدأ تالمان يدخن بسرعة:

«أعاملك؟ أتسمي هذا معاملة؟ إنك متواضع حقّاً. لقد أوضحت لك بما فيه الكفاية بأنني غير مستعد أبداً الى أن أتعامل معك بأي طريقة كانت. إذا أردت مني الوقوف الى جانبك، فعليك قبل كل شيء أن تنبذ الى الأبد الكلمات الطنانة الكبيرة؛ لأنني لاأحب سماعها.»

«لكن من أنتَ؟» صرخ تراجي وقفز نحو الرجل، وصار قبالته تماماً وكأنه أراد أن يوجه له لكمة. وكان يرتجف من شدة الغضب.

«من ذا الذي أعطاك الحقّ لتسحق على كل لديّ؟»

بيد أن الدموع ترقرقت في صوته وجعلته أعمى البصيرة، مهزوزاً، فتراخت قبضتاه المكورتان. أعادهُ الآخر الى الكرسي وانتظر لحظة ثم تطلع الى ساعته وقال: «أترك هذا الموضوع الآن. لابد أن تذهب الى البيت، فأنا يجب أن أكتب، وقد أصبح الوقت منتصف الليل. لقد سألتني من أنا: عامل أنا! أنظر الى هاتين اليدين المشققتين؟! دخيل أنا، وأحب الجمال، لكنني فقير معوز. أنا رجل عليه أن يشعر في البدء بأنه مكروه من قبل الآخرين، ليدرك فيما بعد بأن لا أحد يتعاطف معه ويرحم به... أي أنه العبث في نهاية المطاف؛ العبث الذي لاقيمة له

ولامعنى.» فرفع تراجي عينيه الساخنتين والجافتين معاً، وأخذ يحدق في السراج الذي أوشك على الإنطفاء، حسبما اعتقد، ثم نهض وانصرف، بعدما أنار له تالمان السلّم الضيق الذي بدا لتراجي وكأنه لاينتهي.

* * *

وقع تراجي مريضاً، وعليه لم يتمكن من الانتقال الى سكن آخر، واحتفظ بغرفته في فنكن شتراسه حتى الأول من كانون الثاني. كان يضطجع على الأريكة غير المريحة، ويفكر في الحديقة الفسيحة ذات الأعشاب الصفراء وفي التلال التي تتسلقها أشجار البتولا بسهولة وسكون. تتسلقها الى أين؟ الى السماء. فجأة بدا له من الغريب بما لايصدق أن يتخيل البتولا الفتية النحيلة في مكان آخر غير السماء. إن هذه الأشجار لاتنبت مؤكداً إلا في السماء وحدها، بكل تأكيد. وإلا فماالذي ستفعله الأشجار في الأسفل؟ ثم أخذ يتأمل: أن من الممكن أن تقف النجوم الى جانب هذه الجذوع البنيّة العريضة، لكنه سأل نفسه بغتة: «ماالذي تقطفينه الآن ياجان؟ أنجوماً؟!» ثم واصل تأمله بعد لحظة: «إنه لشيء رائع يا جان، رائع جداً.» وشعر بانتعاش يتسرب الى جسده كله، بيد أن سرعان مابددته نوبة ألم شديدة اجتاحت عموده الفقري. «لقد أجهدت نفسي كثيراً، وأمضيت فترة الضحى كلها في قطف الزهور. كيف يفعل المرء هذا كله في فترة الضحى؟ فيالها من مهزلة: يومان، أربعة عشر يوماً، أوووه، على العموم!» لقد أقبلت جان، قادمةً من الشارع المشجّر، عبر الجادة الطويلة المغروسة باشجار الحور، وأصبحت الآن قريبة منّي. خشخاش! قال إيفالد بخيبة أمل. خشخاش. من ذا الذي سيأتي بالخشاش؟ العاصفة،وبعدها يندثر كل شيء، وسترى ذلك بنفسك. ثم ماذا؟ نعم، وبعد ذلك؟

بعد ذلك انتفض تراجي من فراشه، وقد داخله إحساس غامض

بوجود حديقة ما، فحاول أن يتذكر: متى حدث ذلك، يوم الأمس؟ ثم أجهد نفسه بالتفكير: قبل عام؟ وشيئاً فشيئاً خطر في ذهنه أن هذا الإحساس كان مجرد حلم، ولا شيء آخر سوى الحلم. لكن هذا الحلم لم يمنحه الطمأنينة اللازمة. «ومتى تأتي الأحلام؟» سأل نفسه هذه المرة بصوت عال.

وفي الغروب روى للسيد فون كرانتس الذي زاره في غرفته الحكاية التالية: «أن الحياة واسعة رحبة، وليس فيها سوى أحداث قليلة جداً، لايقع الواحد منها إلا بعد قرن من الزمان. هذه التحولات تجعل المرء خائفاً مرهقاً. في طفولتي كنت في إيطاليا ذات مرة؛ والآن لم أعد أتذكر شيئاً كثيراً عن تلك الرحلة، لكن عندما كان المرء يمر بفلاح ويسأله (كم تبعد المسافة الى القرية؟) فإنه يجيب (un' mezz' ora) ويقول الفلاح الآخر الكلام نفسه والثالث كذلك، كما لو أنهم كلهم متفقون على ذلك. فكان المرء يسير يوماً كاملاً دون أن يصل الى القرية. هكذا هي الحياة! لكن في الحلم يبدو كل شيء قريباً جداً. في الحلم لايشعر المرء بالخوف أبداً. لقد خُلقنا في الواقع من أجل الحلم وحده، فنحن لانملك الأعضاء الجسمانية الصالحة للحياة؛ لأننا مجرد أسماك تريد التحليق بأي ثمن، فماالذي يمكن أن نفعله في هذه الحالة؟»

لقد أظهر السيد فون كرانتس تفهماً لما صرح به إيفالد وقال مؤيداً: «عظيم!» ثم الحق كلامه بضحكة: «فعلاً؛ عظيم جداً. يجب أن يصاغ هذا الكلام في قصائد. إنه جدير حقّاً بالاهتمام، وينسجم تماماً مع طبيعتك وخصوصيتك.» ثم انصرف بعد لحظة؛ لأنه لم يكن يرتاح كثيراً لهذه الأحاديث. بعد ذلك أصبحت زياراته نادرة، وكان تراجي يشعر بالإمتنان له كل مرة. أمّا الآن فقد بات يعيش في حالة حلم، يتأمل خلالها النهار الرماذي الكئيب في الخارج، وفي حجرته الرطبة التي لاتتقبل الدفء والحرارة، فتجعل منه الألوان واحتفاءات الطبيعة

مدللاً، مترفاً، إلا تلك الليالي التي كانت تبدو سيئة للغاية ومثيرة للرعب، فتجتاحه عذاباته القديمة التي تعود الى أيام طفولته المليئة بالحمى، ويصبح خاملاً متعباً، شاعراً بأن صخرة ناتئة رقدت تحت أعضائه، وقد أعقبتها حجرة صوان رمادية، توغلت في يديه الشديدتي الحساسية، بكل برود وجفاء وقسوة، فبدأ جسده المسكين ينحت في تلك الصخور، وتحولت قدماه الى جذور تمتص الصقيع الذي كان يتصاعد ببطء في العروق والشرايين المتصلبة...

أو أن تخطر في ذهنه قضية النافذة من جديد: كانت هناك نافذة صغيرة مختفية وراء الموقد الحجري. أوه، إنها عصيّة على الوصف، ولايدرك المرء كم هي مرعبة، تلك النافذة. وثمة نافذة وراء الموقد، فرجاءً. لكن أليس رهيباً أن يفكر المرء في أن هناك حاجةً ما تختفي في الزواية المهملة؟! فهل هذه غرفة؟ أم صالة؟ أم بستان؟ من ذا الذي يعلم بالأمر؟ «آه، لو أن هذه الرؤيا لاتتكرر ياحضرة الطبيب!»

«نحن البشر عصبيو المزاج»، قال الطبيب مبتسماً، وبدا راضياً عن نفسه، مرتاحاً تماماً. «ويجب أن لاننفعل بدون سبب أو مبرر. إن هذه مجرد حمّى خفيفة، سنتغلب عليها بسهولة، أوصيك بالاكثار من الطعام.»

فابتسم إيفالد من وراء ظهر الطبيب. لقد كان مريضاً من كل قلبه، وكل ما أحاط به كان منسجماً مع مرضه: أيام الأحلام السوداوية التي كانت تستند الى زجاج النافذة بثقلها الكامل، وهذه الغرفة التي تراءى فيها الغسق كالغبار القديم المتراكم فوق الأشياء، وهذا العطر المرهف، الذابل، الذي كان يفوح من قطع الأثاث، ومن ثم الأرضية الخشبية دائماً وأبداً. أحياناً كانت تقرع نواقيس ضخمة في مكان ما، لم يكن قد سمعها من قبل، فيرخي حينئذ راحتيه على صدره، ويغمض عينيه،

ويحلم بأن شموعاً كانت تتوهج حول رأسه، سبع شمعات طويلة ذات لهب أحمر هادىء مثل براعم أطلّت وسط هذا الحزن المهيب.

إلا أن الطبيب العجوز كان على حقّ؛ إذ إختفت الحمى بعد وقت قصير، ولم يعد تراجي يلتقي ثانيةً بأحلامه المقبضة. وأخذت القوة الجديدة الكامنة في أعماقه تتحرك بنفاد صبر في أعضائه، وتدفع به خارج فراشه، برغم إرادته. ظلّ في الواقع يمارس دور المريض فترةً وجيزةً؛ إلا أنه كان يجد نفسه يبتسم أحياناً، ليس لسبب محدد، بل لأن الصدفة وحدها قد جعلت أحد أيام الشتاء يحتفظ بالشمس لحظة، لدرجة أن اليوم أصبح يشع ويتلألأ من جميع الجهات. لقد كانت هذه الإبتسامة مثل أعراض مرضية. كان عليه آنذاك أن يتجنب الهواء الطلق، فصار يجلس في حجرته وينتظر. والآن بدا كل شيء يميل الى ادخال البهجة الى نفسه، بل صار تراجي يستقبل كل همسة في الخارج، مثلما يستقبل مغنياً جوّالاً– وقد انتابته بعد ذلك رغبة في البوح، فياليته يتلقّى رسالة، أي رسالة كانت، أو أن يقرع السيد فون كرانتس باب حجرته ذات يوم. لكن الأيام كانت تمضي وتدور به على هذا المنوال، وكان الثلج يهطل، فيختفي وقع هطوله بين أكوام الجليد المتراكمة. لكن لم تأت رسالة ولم يزره أحد، فأصبحت لياليه طويلة لامتناهية، حتى أنه تخيّل نفسه منسياً، وبدأ يتحرك بلا إرادة، فينادي، يهتف، معلناً عن وجوده. ثم أخذ يكتب: الى الأهل، الى السيد فون كرانتس، والى جميع أولئك الذين تعرف عليهم عن طريق الصدفة، بل أنه أخذ يبعث برسائل التوصيات القديمة التي حملها معه من البيت، لكنه لم يكن بحاجة اليها حتى ذلك الوقت، وظل ينتظر أن يرد عليه أحد ما بدعوة للزيارة. لكن دون جدوى. لقد ظلّ منسياً تماماً، مهما هتف ونادى أو أعطى اشارة، ولم يعد صوته يصل الى أي مكان.

وفي تلك الأيام بالذات أصبحت حاجته الى مشاركة الآخرين والاختلاط بهم كبيرة للغاية، وبدأت تلك الرغبة تنمو في أعماقه، وتحولت الى ظمأ جاف مدمّر، لكن ذلك لم يجعله ذليلاً منكسراً، بل عنيداً مكابراً، ولو بمرارة. فجأة فكّر في ما إذا كان يحق له المطالبة بذلك الشيء الذي سعى، بلا طائل، بغية الحصول عليه وانتزاعه، من العالم برمته كما لو أنه يطالب بحق شخصيّ، أوبدين قديم يجب أن يسدد إليه بأي وسيلة وبلا مراعاة لأي ظرف.

فكتب الى أمه مطالباً: «تعالي، وارجعي ماهو لي!» بيد أن هذه الرسالة ستكون طويلة، طويلة تماماً، وإيفالد كان يكتب والليل كان يتقدم، لكنه ظلّ يكتب بوجنتين ساخنتين. لقد بدأ الرسالة بالمطالبة بإداء الواجب، وقبل أن يكون قد عرف الواجب، إلتمس من أمّه الرأفة والاحسان والدفء والدلال. كتبَ: «مازال هناك متسع من الوقت– ومازلت أنا رقيقاً هشاً، وبوسعي أن أتحول الى شمع ذائب في يديك الحانيتين. فخُذيني واصنعي منّي شكلاً جاهزاً، واجعليني بالغاً منتهياً...» كان ماكتبه بمثابة صراخ نحو الأمومة، يتجاوز الأم نفسها، ويصل الى مرحلة الحبّ الأول الذي يبدو فيه الربيع سعيداً، قرير العين، خالياً من الهمّ. إن هذه الكلمات سوف لاتهرع في اتجاه شخص محدد، إنما ستندفع منطلقةً نحو الشمس بذراعين مشرعتين– وليس من المستبعد أن يدرك تراجي في نهاية المطاف، بأن ليس هناك من يبعث له بهذه الرسالة، بل ليس هناك حتى من يفهمه، لاسيما تلك السيدة النحيفة المتوترة الأعصاب، التي تبدو فخورة؛ لأن الناس يسمونها (آنسة)، فكّر إيفالد وعرف أن: على المرء أن يحرق الرسالة.

فانتظر؛ غير أن الرسالة احترقت ببطء شديد، وتحت لهب صغير مرتعش.

أثناء الحديث

يمكن التفكير، بكل بساطة، في أن ما وجد في الصالة كان مجرد صور: وقد وضعت في اطارات عميقة، هادئة، حالمة؛ صور لجيورجيونه، ربما، أو بورترية ارجواني غامق، على غرار أعمال تيسيان، أو على طريقة بوردون الباريسية نوعاً ما. لكن المرء كان يدرك أنها مجرد زهور؛ زهور كبيرة مندهشة، وقد رقدت طوال النهار في صحائف عميقة باردة، وغنّت عطوراً: زهور عاطلة عن العمل.

وثمة أناس عاطلون: أثنان، أو ثلاثة، أو خمسة. وفي كل مرّة، كان الضوء يمتد من جديد، بازغاً من موقد التدفئة الضخم، ليبدأ باحصائهم، لكنه كان يخطأ دائماً. وفي المقدمة، عند موقد النار مباشرة، جلست الأميرة بثيابها البيضاء، الى جانب السماور الكبير الذي أراد أن يخطف البريق كله بمفرده. بدت وكأنها تخطيط لوني جامح على اللوحة؛ تخطيط نشأ بفعل تدفق عاصف لخاطرة أو نزوة، وقد رُسم بالظلّ والضوء في لحظة من لحظات التدفق العبقري. فقط الشفاه نُفذت بدقة مرهفة كما لو أن كل شيء آخر كان موجوداً من أجل الفم وحده، وأن إنساناً ما صنع كتاباً كاملاً من مئة صفحة، ليختار واحدة، حتى يدوّن عليها مرثية صامتة لتلك الابتسامة.

انحنى السيد القادم من فيينا الى الأمام قليلاً في مقعده المكسو بالغوبلين وقال: «أيها السمو الأميري.» ثم تبع قوله شيء ما بدا للسيّد نفسه بلا قيمة. إلا أن تلك الكلمات الرقيقة الخالية من المعنى طافت حول الجميع كالدفء، الى أن صرّح أحد ما بامتنان: «أن التحدث بالألمانية لايختلف كثيراً عن الصمت.»

بعد ذلك توفرت فرصة زمنية كافية للتفكير في أن هناك صوراً،

ويالها من صور! فسأل الكونت سانت – كوينتين الذي وقف الى جوار الموقد «هل شاهدت لوحة العذراء، يا (هيلينا بافلوفنا) ؟»

فخفضت الأميرة جبينها.

«ألا ترغبين في إقتنائها؟»

«إنها لوحة جيدة» ، أكّد السيد القادم من فيينا، وانهمك يتمعن في يديه الرقيقتين الأنثويتين، ومالبث أن علّق رسّام الماني، كان يجلس في مكان ما وسط الظلام، قائلاً بتسرع: «نعم؛ يمكن أي يضعها المرء الى جانبه. أعني في غرفة سكنه، أو في شيء من هذا القبيل.» وبعدما تلاشت آثار كلماته انحنت هيلينا بافلوفنا وقالت: «كلا» – ثم استدركت بنبرة حزن «يجب أن يقام لها مذبح.» فتوغلت كلماتها عميقاً في الصالة، متلمسةً، وكأنها كانت تبحث عن شيء ما، وبعد لحظة صمت قامت الأميرة بحركة صغيرة متوجسة، كما لو أنها أرادت أن تعاونها، لتعثر على ضالتها.

«كازيمير، هل ينبغي عليّ شراء العذراء؟» فجاء صوت سُلافيّ من بعيد معلناً عن تعجبه: «وهل تسأليني أنا؟»

صمتْ.

فطلبت منه هيلينا بافلوفنا أن يعذرها: «أليس حضرتكَ فناناً؟»

فأجاب: «أحياناً، يا هيلينا بافلوفنا، أحياناً–»

ولو لم يدقّ ناقوس الساعة الفضّية، لاعترض الرسام الألماني بالردّ: «لكنّ» – بيد أن الساعة الفضّية أتت بأشياء كثيرة، فتخلى عن فكرته؛ لاسيما وأن الكونت سانت–كوينتين قال: «بالمناسبة، هل هذا هو شتاؤك الأول في البندقية، يا هيلينا بافلوفنا؟»

«نعم؛ لكنني لا أعتقد أن هذا الشتاء مختلف عن الذي قبله.»

«إنه لأمر يدعو الى العجب حقّاً؛ فهذه القصور القديمة مرهفة التأثير من خلال ما تمنحه من ثقة؛ هذه القصور التي تحتفظ بالكثير

من الذكريات؛ وأحياناً ينتاب المرء شعور وكأنه يتقاسم معها كل شيء، أليس كذلك؟» هكذا قال الرجل القادم من فيينا ثم أغمض عينيه، فلم ير هيلينا بافلوفنا وهي تبتسم متممةً قوله: «أنك محقّ بلا شكّ، خاصةً وأن المرء لم يكن طفلاً هنا، فتأمل حضرتك: كثيراً ماتراءى لي عندما كنت أسير في الطرقات أو الحدائق بأن عليّ أن ألوّح بيدي الى أحد ما لأروي له قائلةً: إنني عندما كنت طفلة صغيرة كنت ألعب في هذا المكان. أو: هنا، في هذه الكنيسة، كنت أذهب للصلاة أمام هذه الصورة– فهذه محض أكاذيب، أكاذيب.»

في تلك اللحظة اقترب منها صوت كازيمير حزيناً منكسراً: «وبالرغم من ذلك، فإنك لم تلوّحي الى أحد يا هيلينا؟»

ثم حلّ الصمت، فأخذ الكونت سانت–كوينتين يتأمل بهدوء: «ألا يحق للمرء أن يمارس الكذب في حالات كهذه؟»

«نعم؛ بفعل الحنين، بكل بساطة.» أكد السيد القادم من فيينا.

«بل بفعل الجمال.» عبّر الكونت عن شعوره.

«إن هذا الأمر لايضر أحداً»، أدلى الرسام الألماني برأيه.

هنا بادر كازيمير بالكلام مجدداً: «على أية حال؛ إن كل مايخلفه المرء وراءه هو عبارة عن خطأ. هل تعتقد ياحضرة الكونت أنك كنت صبياً مشاكساً في ضواحي مدينة فنديه؟ ألا تعتقد ياأيها السيّد أن فيينا هي كل ما أحاط بيقظتك الأولى وتطلعكَ؟ وهل تعتقد أن هذا البلد المنبسط الذي كثيراً ماتحدثت عنه يمثل حقّاً مصدر الأساطير كلها؟ هل تعلم ذلك حقّاً؟ هذا القصر، أرجوكَ، وهذه المدينة، إضافة الى مروجك هذه، ألا تمثل حدود البلد الذي ترعرت وعشت فيه بكل عمق وحميمية؟ أرجوكَ، ألا تبدأ ملكيتك حيث تنتهي ملكية الآخرين؟ ألا تغرب شمسك حالما تستقبل الضوء الحقيقي؟ ألا تموت الأشكال الصامتة في أعماقك عند كل كلمة كان يقولها لك أبوكَ على

سبيل المثال؟ والأشياء؟ ألا تبدو لك الأشياء بلا قيمة في اللحظة التي تدرك خلالها أنها ليست ملكاً لكَ وحدك، إنما تقف منفصلة مستقلة عنكَ، وباستطاعة أي أحد أن يمسها ويستعملها مثلما يشاء؟ أرجو أن تفكر في هذا، أتوسل أليك. يبدو كأن المرء غير قادر هذه الأيام على تبديل الذهب الخالص الذي يملكه، بارتياح تام، بأوراق نقدية. ماذا؟ فتكون آنذاك تحويلات مالية في حوزة المرء، بدلاً من القيم الثابتة. وإذا ماانهارت الأسعار انهياراً كبيراً، اليوم أو غداً؛ فإن المرء سيتحول الى شحّاذ- أليس هذه هي الحقيقة؟»

وبعد فترة صمت، تدخلت هيلينا بافلوفنا قائلةً: «يخيّل إليّ وكأنك لم تستبدل ذهبكَ كله يا كازيمير.»

«ربما، يا هيلينا بافلوفنا، يمكن أن أكون قد فعلت ذلك، لكن الذهب لا قيمة له في الحياة، يجب أن تعلمي هذه الحقيقة. إنه دائماً مايكون خارج أسعار الصرف والتداول. وعلى المرء أن يحتفظ بالأوراق المالية، ومن الأفضل الإحتفاظ بالكثير منها.»

غير أن هذا الإستطراد جعلَ الرسامَ الألماني يفقد صبره، فقال معلقاً: «نعم، نعم؛ هذا ما كنّا نسمعه كل مرة. إنكم متشائمون، أيها السلافيون، متشائمون بلا شفاعة. لكننا قد تجاوزنا ذلك؛ لأننا نحب الحياة، ونحب الفنّ الذي ينبع من قلبها.» ثم خطا الرسام بضع خطوات نحو الشبّاك وأضاف بصوت خافت: «أعتقد أن على السادة أن يعطوني الحقّ، وأنت أيها السيّد الكونت؛ لقد لقننا الفرنسيون درساً في ما يتعلق بالحياة. كيف؟! بلى؛ وأنتم في فيينا...»

«أجل، أجل»، أجاب السيد ذو اليدين الناعمتين متمهلاً. «صحيح تماماً، نحن في فيينا نتصرف وكأننا نمتلك كل شيء - الحياة- والفن و...» ثم أخذ الكونت سانت-كوينتين يرتشف شايه، منشغلاً بالفنجان الجميل، لدرجة أنه لم ينه اجابته. وكيفما

وضع الفنجان على الصحن؛ فإنه كان يغني لحظة قصيرة لامتاع نفسه.

لكن الرسام الألماني ظهر عليه الإستياء، وشعر بأنه خُذل من قبل الآخرين، ففكر في إنقاذ قضيته بأي ثمن، وبدأ من جديد: «لهذا السبب فأنكم لاتملكون فنّاً، أنتم، أيها البولونيون، وهلم جرّا. بلى؛ غير أن مايخص الأدب وما الى ذلك من خزعبلات، فلربما. وعلى المرء أن يكتب قصائد رائعة بفعل الألم والضيق بالدنيا، ويؤلف بعد ذلك موسيقى مغرقة بالعاطفة، هُمْ! شوبان، جايكوفسكي، بلا شك. أمّا مايخص الرسم، كلا؛ إنني لاأفقه شيئاً من هذه الأمور، أعني الرسم الحديث.»

هنا صار الرسّام يدافع عن نفسه: «أوه... أنظر حضرتك الى فيرجاغيني.»

فقال الرجل القادم من فيينا: «أو البورتريه؛ نحن لدينا الآن بوخفالسكي في فيينا.» وبدأ متحمساً جداً للتخفيف من حدة الإدعاءات الفظّة التي أطلقها الآخر. كان يأمل لو أنه قدر على إشاعة جوّ من اللطف والمؤانسة، فارتعشت يداه إثر ذلك الاحساس.

بيد أن كازيمير بادر الى القول: «إن السيد محقّ في رأيه، فنحن لانملك فنّاً.»

«لكن عليك أن لاتنسى (بان تاديوش)»، قال الكونت سانت كوينتين محذراً.

«لقد فكرت فيه تواً، وفي العظماء الروس كذلك، وفي (تتماير) وأولئك الشعراء الشباب الرائعين الذين يجعلون من المرض شيئاً جميلاً ممتعاً. إن حضرتكَ تراني أفكر في الكثيرين، وأتوصل الى أننا نمتلك في الواقع الكثير من الفنون، لكن ليس الفن نفسه. فهناك الكثير من الرغبات، لكنها تبقى بعيدة عن التحقق، لعلّ الأمر

يختلف لدى الألمان، وذلك ما لاعلم لي به. وفي هذه الحالة يجب أن يكون الألمان في غاية السعادة.»

كانت الأميرة قد ابتعدت قليلاً عن موقد النار، وبدت عيناها تهتف في الظلام، فشعر الرسام الألماني بأن حديثاً جديداً سينطلق حالاً، من دون أن يؤدي الى نتيجة. إنه حقاً لأسلوب بشع هذا التظاهر بالثراء الروحي، بحيث تكون الأشياء كلها واضحة، طالما لم يخض فيها المرء؛ لذلك فقد اختار الرسّام الصمت، لئلا يطيل الحديث حول الموضوع. ولربما كان الموضوع برمته قد انتهى لو لم يبادر السيد القادم من فيينا الى السؤال: «ماذا تعني بكلامك هذا؟» والذي طرحته بطبيعة الحال: «ماذا تعني بهذا الكلام؟»

غير أن كازيمير لم يجب على الفور، فوجدت الأميرة هيلينا بافلوفنا وقتاً كافياً لكي تثني يديها.

فجأة ارتفعت في الظلام كلمات مترعة بالرقة والعذوبة، تبعها وقع خطى كما لو أن البولوني أراد أن يرافق إحدى عباراته الخائفة مسافةً داخل الصالة. كان وقعها هكذا تقريباً: «لقد تحدثنا قبل فترة حول هذا الموضوع، أرجوكم؛ إن الفنّ هو في الواقع طفولة. الفنّ يعني عدم المعرفة بأن العالم قائم، ليقيم المرء عالماً آخر، على أن لايحطم مايجده أمامه، بل أنه ببساطة لايجد شيئاً جاهزاً أمامه. إنه إمكانيات لامتناهية، ورغبات خالصة. ويمكن أن يكون الفنّ تنفيذاً وتحقيقاً مفاجئاً لكل رغبة، أن يكون صيفاً، حاملاً شمسه معه، وبدون أن يتحدث المرء عنه، بشيء من البداهة، وأن لايصبح مكتملاً أبداً، وأن لايكون له يومه السابع، وأن لايرى أبداً كل شيء بصفته شيئاً جيداً. إنه عدم الرضا والفتوة والشباب. وأعتقد أن اللّه كان شيخاً عجوزاً في بدء الخليقة، وإلا لما توقف في مساء اليوم السادس، وحتى في اليوم الألف، ربما، والى يومنا هذا. هذا في الواقع هو كل ماأضمره إزاءه؛ لأنه

إكتفى بذلك؛ ولأنه وجد أن كتابه قد انتهى بالإنسان، فالقى بريشة الكتابة جانباً، وظل ينتظر عدد الطبعات التي سيصدر بها كتابه، ولأنه لم يكن فنّاناً، وذلك مايدعو الى الحزن حقّاً، ويجعل المرء يهرع الى البكاء، ويفقد شجاعته وعزيمته وأمله بكل شيء.»

هنا خطر في ذهن الساعة الفضّية أن تقول شيئاً ما، متردداً، واضح النبرات، وبصوت متهدج، فتركوها تنهي حديثها، ليبدأ بعدها البولوني على مهل وعلى نحو لاإرادي مشبع بالغموض.

«أغنية ما! فتأمل حضرتك، لوحة تتعرف عليها ثانية، قصيدة تحبها، وهذا كله له قيمة، له أهمية. أعني بالنسبة الى من يخلقها أول مرة، وبالنسبة الى من يعيد خلقها ثانية: أي الفنان نفسه، أوالرائي الحقيقي. فالأمر برمته هو كالآتي: النحّات مثلاً يصنع تمثاله لنفسه، أي لذاته وحدها، لكنه في الوقت ذاته (وهذا هو الفائض الذي ينتج عن عمله) يخلق له مكاناً خاصاً به الى جانب الموجودات الأخرى. ومن يكون قادراً على إعادة تركيب اللوحة من خلال قواه الذاتية وحدها، فإنه يكون قادراً أيضاً على امتلاكها في روحه وفي عقله.

لقد أصبح جمر الموقد كابياً معتماً، يغطيه الرماد، وأخذت أخشاب البلّوط الغليظة تتطاير خلف المشبك الذهبي، على نحو يبعث على الحيرة كما لو أن قصوراً فنطازية بدأت تنهار مجتمعةً.

وبرفقة الظلام تقدم البولوني من الموقد، حاملاً معه مفرداته الخافتة، الشديدة الهدوء؛ كلماته التي تشبه الأطفال الذين يريدون الإفصاح عن رغبة ما خجولة وجميلة معاً.

«إن هذه الأشياء: الأغنية والقصيدة واللوحة، تختلف عن الأشياء الأخرى، فأنظر حضرتك الى هذا بشيء من اللطف. أرجوك. إنه ليس هكذا دائماً. بل أن الأشياء تُخلق كل مرة من جديد، لذلك؛ فإنها تمنح الإنسان فرحاً لامتناهياً. إنها القوة والتسلط والإدراك الواعي

للكنوز التي لاتنضب، والتي لم تأت من أي مكان محدد، فتتلقفها وترفعها. نعم، إنها تفعل ذلك، بل ترفعها -الى الأعلى- حيث الله.»

في تلك اللحظة قام النبيل سانت-كوينتين بحركة ما وكأنه أراد أن يشقّ بها مكاناً لعباراته، وأوشك أيضاً السيّد القادم من فيينا على الكلام، فأخذ يقرأ في يديه بتركيز واضح. بيد أن كازيمير لم ينتبه الى ذلك كله، حتى عندما انشغل الرسام الألماني بوضع أصابعه على فيل من خشب الأبنوس، ليعلّم الآخرين طريقة الركوب، فبدا ذلك مثل تمضية وقت تدعو الى الرثاء، مثلما يفعل أهالي الريف أثناء المطر.

ثم أخذ حينئذ كازيمير يتحدث ، فكان يمكن رؤية عينيه الغامقتي اللون وهما تشعان صحواً:

«هيلينا بافلوفنا- قولي الآن بنفسك، أتوسل أليكِ، أليس هذا هو اليأس بعينه؟ أعني النزوع الى الله دائماً وأبداً، وليس من خلاله، أو عبره، كما لو أنه صخرة صمّاء. لكن الله بستان، إن صحّت هذه التسمية، وبحر، أو غابة- واسعة مترامية الأطراف...» فأخذ المجتمعون كلهم يرهفون السمع الى حفيف الغابة، وأحنت الأميرة جذعها بعيداً في اتجاه البولوني، وكأنها أرادت الاحتفاظ وحدها بكلماته التي نطقها؛ نعم كلماته التي ورد فيها: «ماالذي على المرء أن يفعله يا هيلينا، لكي لايكون حزيناً هكذا، بل حزيناً بلامعنى؟ اخبريني يا هيلينا! أنكِ تقولين -أنا أسمع- هذا ماتقولينه تقريباً، لكن بأسلوب أفضل وأكثر أشراقاً من أسلوبي: وعلى المرء، حسب قولك، أن يبتدأ حيث توقف الله بعدما أصابه التعب والارهاق. ومن هناك عليه أن يواصل العمل، لكن أين يقع هذا ال (هناك) ، يا هيلينا، أرجوكِ؟ إنه يقع في صلب الحياة، في أعماق الإنسان نفسه. وهو لايوجد لدى الكثير من الناس، إنما لدى إنسان واحد محدد، متساهل مع الآخر منذ الأزل. إنه ذلك الإنسان الذي يهب الآخر ذاك الشيء المختلف

الذي يحتاجه، حتى لاينالـه العوز والضيق أبداً، ولـكي يبدأ الآخر حقاً بلا همّ وباسراف؛ إذ لايجوز أن يكون الأمر هكذا مثل زيارة إنسان عابرة الى آخر. فالعالم يسير متقدماً بلاإكتراث، ولابد أن يكون الأمر بمثابة احتفال وابتهاج لاحدود لهما. وهاأنك الآن قد عثرت على لوحة كاملة يا هيلينا، وهي كالتالي: هناك محاربان يقتربان من بعضهما عبر المرتفعات، في بلد ساطع النور، في القدس ربما، أو في مصر، أو على ضفة الغانج، يقود كل منهما جيشاً جراراً، وكل جيش يشمل نصف العالم-» فانتفضت هيلينا بافلوفنا، ووقفت باستقامة، وبهدوء تام. اثنان من الناس وقفا قبالة بعضهما، كانا ملكان، وكان عالماً يشبه عالم القدس أو نهرالغانج. وكذلك كانت ألسنة اللهب التي ارتفعت، وأخذت تنثر البريق بعيداً. لكن الكونت سانت-كوينتين قد غادر مقعده عند الموقد وكاد ينسحب خلسةً، ثم نهض السيّد القادم من فيينا على مهل، فأدرك الرسام الألماني أيضاً أن عليه النهوض في تلك اللحظة. كان مندهشاً للغاية، لأنهم مازالوا يتحدثون عن الفنّ، فياللعجب! بيد أنه جلس من جديد بشيء من الارتياح. إن على المرء أن يتحدث، فكّر الرسام، وعلى المرء أن يتحدث بسرعة بحقّ السماء، أن يقول أي شيء يخطر في البال.

بذل الرسّام جهداً كبيراً، وبرغم ذلك لم يخطر في ذهنه سوى الفيل الصغير المسكين، المصنوع من الأبنوس، والذي كان يروضه قبل ربع ساعة، لكن بدا له من المستحيل التحدث عن الفيل: ياإلهي-

هنا سمع الكونت يقول بالفرنسية: «أرجو المعذرة، يا هيلينا بافلوفنا، إنْ كنت السبب في هذا القيام» فسارع الرقّاص الرقيق الى تأييد ابن بلده، وأعلن عن قدوم ساعة لامتناهية، دامت طوال فترة التوديع، لدرجة أن أيّاً منهم لم يعد بحاجة الى اضافة شيء. وحتى كازيمير نفسه غرق في الصمت، ولم يستطع أحد رؤية وجهه، لكي

يعرف فيما إذا كان شاحباً. بيد أن عينيه لابد أن تكونا متعبتين، وذلك ماشعر به الحاضرون على الأقل. كانت يده ثقيلة، ترتجف، وهو يحني قامته أمام الأميرة بعمق، ثم انصرف، مثل انصراف رجل لم يعد يرغب في العودة الى مكان كان يحبه، وقد ظهر عليه التردد في كل خطوة، فكان يتطلع الى محتويات المنزل بعينين جديتين، وباهتمام تام، لعلّه يتذكر فيما بعد كيف كان الأمر يومذاك. وبقيت هيلينا بافلوفنا واقفة أمام الموقد المنطفىء، وتنصتُ: لكن لم يكن هناك سوى الساعة الفضّية الصغيرة التي كانت تتك بانفاس متقطعة، لاهثة، كما لو أنها كانت تطارد ثانيةً بدت أشد منها سرعة. وفي الأخير مدّت الأميرة يدها الى المدفأة الحجرية، لتتناول جرساً ذهبياً قديماً وصغيراً، نُقشت عليه صور متناهية الصغر، ثم أمرت هيلينا بافلوفنا باشعال النور؛ الكثير من النور.

من كتاب الحلم

الحلم السابع

فتشتُ عن الفتاة الصغيرة، ومن بعد عثرت عليها في غرفة طويلة ضيقة، كان نور الصباح قد دخلها لتوه، رأيتها تجلس على كرسيّ وتبتسم على نحو لايكاد أن يُرى. وعلى كرسيّ آخر يبعد عنها مسافة خطوة أو أكثر، جلس شاب فتيّ، متكئاً على المسند بوضع متشنج. بدوا وكأنهما قد أمضيا الليلة كلها جالسين هكذا.

تحركت الفتاة وناولتني يدها التي رفعَتْها أمامي عالياً. كانت يداً دافئة، خشنة الملمس بعض الشيء، فشعرت كما لو أنني مسكت بحيوان صغير طليق، مكتف بنفسه. ثم تحرك الفتى أيضاً، وبذل جهداً كبيراً لكي ينهض. كان وجهه ينكمش بنفاد صبر وتثاقل يثير القلق. والتفتت الفتاة قليلاً، ثم تطلعت الى وجهه الذي أصبح شديد الاحمرار بفعل ماأصابه من ارهاق، حتى أخذ يتقلّص وينقبض من الوسط، وأحياناً كان جفنه يرتفع بارتجاف، لكن عينه المختفية وراء الجفن كانت فارغة.

«إن هذا لايجدي نفعاً» ، قالت الفتاة بصوتها الشفّاف الذي شعّ نوراً بفعل الضحك الشديد الصفاء، وأضافت: «إذ أن المرء لايتمكن من الاستيقاظ تماماً مادامت عيناه غائبتان. »

وأوشكت أن أسألها: ماذا عنت بكلامها؟! لكنني سرعان ما أدركت معناه. وتذكرت عاملاً روسيّاً شاباً قدم الى موسكو من الريف. كان يعتقد أن النجوم هي عيون اللّه والملائكة. لقد أدخل أحد ما هذا الكلام في ذهنه. وفي الواقع، إن المرء لايستطيع دحض تلك القناعة، لكنه يستطيع ادخالها في الذهن، وله كامل الحقّ في ذلك؛ لأن تلك

كانت أعين البشر التي تنطلق جليّة واضحة من الأجفان المغمضة، لتستريح في السماء. ولذلك؛ فإن النجوم كانت تتجمع فوق الريف حيث يرقد الناس كلهم، بينما تقف متفرقة متباعدة فوق المدينة؛ لأن المدينة فيها الكثير من الناس القلقين المتوترين والباكين والقرّاء والضاحكين الذي يحجبونها.

كان على تلئ الفتاة أن تُبلغ العامل الروسي تلك الحقيقة؛ إلا أنها كانت تفكّر، منذ فترة طويلة، في أشياء أخرى، فتحدثت عن شخص ما، أو ربما عن امرأة حسبما أدركت فيما بعد، كانت قد تزوجت في مدينة ميرانو، اسمها في الوقت الحاضر. . . وأطلقت الفتاة عليها اسماً مرحاً بلذة ومتعة، فأحنيت رأسي لها ايجاباً، ولعلّي أحنيته أكثر من اللازم.

قالت بتهكم: «ها انكَ قد علمت شيئاً جديداً. إنكم كثيراً ماتسألون عن الأسماء، وتشغلون أنفسكم بها كما لو أنها ذات شأن. »

فأجبت بجديّة: «ياعزيزتي؛ إن ذلك له معناه في قلوب الناس، فالزهور تسمّى ماري باومان أو مدام تستو أو النبيلة فون كاموندو أو عاطفة، غير أن هذه الأشياء فائضة عن الحاجة الى حد ما. إنكِ لاتعرفين أسماءهن؛ فثمة ألواح خشبية تعلّق عليهن، لكنهن لاينتزعنها، وهذا هو كل مافي الأمر. إن الناس يعرفون أسماءهن ويهتمون بها، فيحفظونها عن ظهر قلب، وبعناية، ثم ينطقون بها حالما يسألهم عنا أحد، ويغذونها طوال حياتهم، وفي نهاية المطاف تبدو تلك الأسماء شبيهة بهم، لدرجة أنهم يمكن أن يُستبدلوا بها، ماعدا مسألة جزئية واحدة. »

غير أن حديثي كان بلا فائدة؛ لأن الفتاة لم تصغ لي، إنما نهضت ووقفت عند النافذة، حيث بزغ النهار، ثم ابتسمت ونادت على أحد ما؛ ربما نادت على طير.

الحلم الحادي عشر

ثم جاء الشارع الذي انحدرنا فيه بخطىً منتظمة ملازمة لبعضها، وقد أرخت الفتاة ذراعها على كتفي. كان الشارع شارعاً تجارياً عريضاً، خاوياً خواءً صباحياً، وكان ينحدر قليلاً، وينحني حسبما تقتضي الضرورة، لكي يجعل خطى الأطفال خفيفة. كانت الفتاة تسير كما لو أن أجنحة صغيرة نبتت في قدميها.

هنا تذكرت شيئاً.

فسألتني الفتاة بعد برهة: «ماالذي تذكرته؟»

أجبت ببطء دون أن أتطلع الى الفتاة: «تذكرت شارعاً بعيداً نائياً في مدينة شرقية، كان الشارع عريضاً وفارغاً أيضاً، وكذلك غارقاً في الضياء، لكنه كان أشد انحداراً من هذا. كنت أجلس آنذاك في عربة صغيرة، وكان الحصان قد تحمّل كلّ شيء بمفرده، فلم يتولد في نفسي أي شكّ، بأن الحصان بدأ يخبّ، فتصرف الحوذي حسبما تطلّب الأمر، فتراءى الحوذي من الخلف وكأنه بلا رأس، وبدا ظهره المائل وكأنه جذب شيئاً من الخلف، مثلما يجذب رجل غاضب زرّاً لينتزعه؛ إلا أن الزرّ كان ينكمش دوماً على نفسه.

انطلقت العربة الصغيرة مسرعة كما لو أنها كانت تجرف الشارع والمنازل معها، ولم تخلّف وراءها شيئاً قائماً. وهناك، في نهاية الشارع، جاء النهر الفاتن الشهير، الشديد الثقة بنفسه، والذي كان يشعّ بريقاً، فتمليت بريقه الخاطف، ثم رأيت السماء مترعة بالصباح وبالريح العاتية البالغة الحيوية. ومن جديد لمحت جذع الحوذي وهو يطبق على كلّ شيء، فتخيلته يصرخ، غير أن التفريق آنذاك كان صعباً، بسبب الضجيج الذي كانت تصدره العربة. وتطلعت الى السماء ثانية، فرأيتها توعد حقّاً بيوم جميل. وفجأة خطفت صورة الحصان أمام بصري لحظةً قصيرة؛ ذلك الحيوان الشبحي الهيئة الذي

بدا ضخماً جداً بالنسبة لنا، فتوصلت الى قناعة بأن هذا الحيوان لاتربطنا به أيّ آصرة . ولمحت، كما لو أنني كنت أتمتع بوقت فائض، طفلاً صغيراً يلعب بصمت أمام بوابة. وأبصرت حانة في زاوية شارع، وقد رُسمت الى جانب مدخلها، زجاجة معوجة الشكل على قطعة من صفيح؛ زجاجة صغيرة عجيبة منتفخة. لكن ماأثار الشك عندي هو السؤال: هل أن زجاجه كهذه كانت موجودة أصلاً؟! ثمة نافذة قد فُتحت للتو، فخطفت بصري ببريقها، لكنني لمحت في أقل من الثانية وجهاً رهيباً مرعباً، وبعد ذلك... لم أعد أتذكر إلا تلك الأشياء.»

فقالت الفتاة:

«إنني لاأفهم لماذا تذكرت!»

«نعم؛ لأننا كنّا نسير معاً؛ ولأنني عندما رأيت آنذاك، حشداً من الناس، في تلك اللحظات الكثيرة التفاصيل، شعرت وكأنني شديد الشبه بهم. بدا وكأن كل شيء كان يشبه في الواقع الشيء الآخر: الشعور، بل المشاعر نفسها، والموجودات، والأفكار، واللمعان، والحركة التي تجرف معها الأشياء كلها...»

«إنكم غريبون حقّاً»، قالت الفتاة أثناء ما كنّا نتابع سيرنا في الشارع العريض المضاء والمنخفض، وتابعت قولها: «إنكم تفكرون كثيراً ولاتمارسون عملاً آخر غير التفكير، وبالرغم من ذلك؛ فإن هناك تفاصيل كثيرة تفوتكم. ألا تعلم حتى هذه اللحظة بأن الفرح صدمة رعب لايخشاها الإنسان؟ وهل تعلم بأن الإنسان يخترق الرعب اختراقاً حاسماً حتى النهاية: وهذا هو الفرح بعينه. إنه الرعب الذي يعرف عنه المرء أكثر من مجرد حروفه الأولى، ويضع ثقته فيه بالكامل— هل أنت خائف؟»

فقلت باضطراب:

«لاأعلم بذلك؛ إنني عاجز عن الإجابة.»

الحلم السادس والعشرون

«لقد انتزعت من هنا ووضعت تحت غطاء من زجاج»، قالت الفتاة وهي تلتفت الى الغرفة الجانبية، قبل أن تتقدم من الباب لتغلقه بهدوء، جاذبة إيّاه نحوها.

«كلير»، هتفتُ تحت وطأة الشعور بأن الأشياء كلها كانت موجودة هنا ذات يوم، مثلما هي عليه الآن. زماناً كان على المرء أن يلفظ اسم «كلير» في حالة كهذه؛ إلا أن الأمور اليوم قد تغيّرت الى حد بعيد، وبات مسموحاً النطق بكل اسم، سواء أكان معدناً مغناطيسياً أو إنقطاع نفس مباغت أو سمك شبّوط، باستثناء كلير، نعم كلير وحدها. سيكون خطأ مؤذياً، بل سيكون مستحيلاً في تلك اللحظة أن ينطق المرء باسم: كلير.

لقد أدركت ذلك وفهمته على الفور، لدرجة أن الاحتقار الذي أظهرته الفتاة التي ابتعدت عنّي لم يعد مفاجئاً لي. سمعتها حين فتحت صندوقاً وأخرجت منه قطعة نسيج، ثم وقفت عند النافذة، حاملةً قطعة الحياكة، وعرضتها أمام الضوء، لتتفحصها برأس مائل.

قالت بازدراء دون أن تغيّر موقفها: «إن من غير المعقول أن ترفض تقبيلها.»

كانت هذه فعلاً وخزة عميقة ليس لها مايبررها، فاكتفيت بتلميحة صغيرة ساخرة. وجلست الفتاة على حافة النافذة العريضة، وقد وضعت قطعة الحياكة على ركبتها، وأخذت تمسحها بيديها يميناً وشمالاً، لكي تستوي. وتحت تأثير هذه الحركة، أو ربما لأنني تأملت شعر الفتاة الأشقر المائل، أو يعلم اللّه وحده لأي سبب، اقتنعت بأن هذه مسألة عصيّة على التصديق، واجتاحتني نوبة من الشكّ، انطلقت من ذكرى صغيرة، فرأيت عيوناً منتفخة لإنسان مصاب بالسلّ، عيوناً كانت تتوسل.

قالت الفتاة: «سوف لايبقى منها شيئاً يذكر» ، ثم أرخت يديها على قطعة الحياكة فوق ركبتها، وبدت كما لو أنها أخذت تنأى عن يديها قدر المستطاع عندما انحنت ثانية لتنظر إليّ مرّة أخرى، فرمقتني بنظرة واسعة، فقدت فيها ملامحي كلها.

قلت: «لقد كانت صبيّة خادمة» ، قلت ذلك بلهوجة كما لو أنني كنت أجيب على سؤال في اللحظة الأخيرة التي تسمح باعطاء اجابة. لم أكن أعلم قط بأنني سأبدا الحكاية من هذه النقطة، فأضفت: «لقد كانت تشتغل في (الفندق الكبير) ، حيث كان يقيم الكثير من المرضى. وبالمناسبة: إنني لم أمكث هناك سوى ثمانية أيام، فكانت الصبية تحرص على خدمتي. لكنني انتبهت الى أنها لم تقم بتلك الخدمة على وجه صحيح. وفي اليوم الثالث من الاقامة عرفت عنّي كل شيء؛ عرفت عاداتي واهتماماتي الصغيرة التي حاولت أن ترضيها. كانت تسعل، فقلت لها ذات صباح (إنك تسعلين؟) غير أنها ابتسمت، وبعد لحظة انتابها السعال في الخارج مرة أخرى.

لقد رحلتُ بعد ذلك. وفي فلورنسا، عندما فتحت حقيبة سفري وجدت في طرف منها زهور البنفسج؛ وفي مساء اليوم ذاته أبصرت قصاصة ورق كانت ترفرف على قميص النوم، وقد كُتب عليها «وداعاً» بخط يشبه خطّ التلاميذ الصغار. إنني لم أكن قد فكّرت فيها في الواقع مرّة اخرى، ومع ذلك سألت عنها بعد شهرين، عندما عدت الى الفندق الكبير، حيث رقد الكثير من المرضى، لكنني لم أجدها.

(لقد أصيبت ماري بمرض) ، قالت المنظفة الغريبة باستياء ظاهر. لكن ماري جاءت في المساء. كان ذلك في شهر أبريل المعروف بطقسه اللطيف. غير أن ذلك المساء كان بارداً بشكل عجيب، وكانت الصبية تجثو أمام المدفأة، وعندما أدرات وجهها نحوي، بدا وكأن وجهها خرج تواً من هالة النار، ثم أخذت عيناها ترسلان بريقاً حاداً بفعل

الوهج. لم تنهض الفتاة مباشرة، ومثلما لاحظت، كان من الصعب عليها النهوض، فساعدتها قليلاً، وأحسست كم كان جسدها خفيفاً.

«هل أنتِ على مايرام؟»

سألتُ بتلقائية حملت في طياتها رغبة في المداعبة والمزاح. وحسبما أتذكر فإنها لم تردّ، إنما رمقتني بنظرة طويلة، وظلّت تحدّق فيّ وتحدّق... ولم تفعل ذلك عن قرب؛ لأنها رجعت الى خزانة الملابس. أعتقد أن الوقوف كان صعباً عليها. ثم أن الغروب الذي غمر الغرفة لم يظهر نحونا أي إهتمام. لقد حلّت العتمة، ولم يعد هناك ما من شأنه أن يخفف من وطأة الموقف: كان عليها أن تتحمل ثقلها بمفردها؛ لأنني كنت آنذاك قلقاً مضطرباً، بل كنت فاقد الصبر.

وفي النهاية استطاعت التغلب على نفسها، فتقدمت منّي (إذ انها مازالت تحتفظ ببعض القوّة التي كانت تبرز بين الحين والآخر) وتفحصتني بنظرها عن كثب. كم كان الجو مظلماً آنذاك. لكنني تخيلت شعرها وكأنه قد أصبح أكثر نعومة وطراوة من السابق، ربما بفعل المرض، أو ربما لأنها ما عادت تزاول عملها في الفترة الماضية. ورفعت ذراعيها قليلاً (كدتُ أنسى هذه الواقعة)، وأرخت راحتيها على صدري. كان هذا أخر فعل قامت به قبل رحيلها...»

هنا اجتاحني الرعب من جديد، فسألتُ، بقلق، الفتاةَ التي جلست في الناحية الأخرى، والتي لم أرها في البدء: «هل استرسلت الآن في الحديث؟» كانت تجلس على كرسيّ ذي مسند، ومكسو بالقماش الأخضر، لم يكن موجوداً قبل فترة قرب النافذة، وبدت منهمكة في عملها، وقد أحنت جذعها أكثر بقليل مما هو ضروري.

ثم سألتني فجأة دون أن ترفع بصرها:

«وأنتَ؟»

«نعم؛ أنا، لقد تركتها ترحل. لم أفعل شيئاً، وكذلك لم أنطق بكلمة. كنت منشغلاً في البحث عن موضوع تافه، عديم الأهمية...»

فرفعت الفتاة بصرها متفحصة، وقد غشيت عينيها عتمة التطلّع التي تتشكل أحياناً في العيون الشديدة الزرقة المطبقة وقتاً طويلاً، قبل أن تسألني:

«وبعد ذلك؟»

«أوقدت النور!»

وعادت الفتاة من جديد الى مشاغلها، وأخذت تقلّب القطعة نحو اليمين ونحو الشمال، ثم ترفعها الى الأعلى، وتبعد رأسها الى الوراء، لتتأملها عن بُعد بعينين نصف مغمضتين.

وخطر في ذهني أن أقول لها:

«لقد ذهبت بعد ذلك لأستريح؛ لأنني كنت متعباً. ربما لم أكن متعباً، بل كنت منشغلاً في القراءة، صحيح تماماً، كنت أقرأ-» تمنيت في تلك اللحظة أن أتذكر ماكنت أقرأه آنذاك؛ إلا أنها سرعان ماتخلت عن عملها، كما تخيّلتُ، وألقت بقطعة القماش على حافة النافذة باهمال ظاهر وبدأت تجمع بعض الخيوط الملونة التي بقيت في حضنها، وقالت بسخرية «قرأتَ»، ثم تطلعت الى الأعلى بعينين غائمتين باردتين، وكررت المفردة بقسوة لاتوصف «قرأتَ!»

كانت الطريقة التي لفظت بها تلك العبارة قد أفرغتها من محتواها، وأفقدتها معناها تماماً، حتى أنني خلتها تذكر اسم مرض غريب، كان منتشراً في ذلك الوقت؛ مرض خطير معد، أودى بحياة الكثيرين، فاعترتني حالة خوف شديدة كما لو أنني أصبت به. ثنت الفتاة يديها على ركبتها المرفوعة آنذاك، وأشاحت بوجهها ناحية

النافذة، ثم تضرعت الى السماء: «ياإلهي العزيز» ، مشددة النبرة على الحروف الأخيرة.

وعند ذلك لم أعد أحتمل المشهد، فتقدمت بضع خطوات في اتجاه النافذة، وشعرت كيف تكونت في أعماقي كلمات لايمكن إلا أن أبوح بها في الحال، لكي—

لكن الأصوات بدأت ترتفع في الغرفة المجاورة، وكأن باقة كاملة من الأصوات المختلطة المذعورة قد قذفت نحو الباب. وفي الحال وجدنا أنفسنا، حسبما تراءى لي، نقف معاً تحت ظلال الرعب الكبير.

فلاديمير، رسّام الغيوم

وصلوا مرة أخرى الى أسفل القاع، أولئك الفائضون عن الحاجة، المرتدّون، المخدعون بكل ماحملت الكلمة من معنى. كان كل واحد منهم يبدأ عادة بنفسه، ثم يظهر احتقاره لكل ما ماكان قائماً في الأعلى والأسفل.

وتحت وطأة هذا الإحساس قال البارون: «إن المرء لايستطيع الذهاب الى هذا المقهى مرة أخرى؛ إذ لا جرائد فيه ولاخدمة ولايرجى منه أي شيء.»

وفي الحال شاطره صاحباه رأيه بشكل تام.

جلس الأصحاب حول طاولة صغيرة من المرمر، بحيث لم يعلم المرء ماالذي أراده أولئك الثلاثة من الطاولة. لقد كانوا ينشدون الهدوء؛ الهدوء بكل بساطة. وقد عبّر الشاعر عن تلك الرغبة بوضوح، وبمحاكاة صوتية، تنم عن المعنى المراد.

«هراء»، قال بعد نصف ساعة.

ومن جديد شاطره الآخران الرأي. كانوا ينتظرون شيئاً، ويعلم اللّه وحده ماالذي كان ينتظرونه. وبدأت إحدى ساقي الرسّام تتأرجح، فأخذ يراقبها برهة من الوقت بتمعن، ثم أدرك معنى الحركة، فاسترد ثقته بنفسه ببطء وبحساسية مرهفة:

«بلادة في بلادة،

أنت ياسلواي!»

حينئذ حلّ الوقت المناسب للمغادرة، فخرجوا واحداً تلو الآخر بياقات مرفوعة. كان الطقس لايختلف كثيراً عن حالتهم، مما كان يشجع على البكاء.

فماالعمل؟ لم يبق أمامهم سوى حل واحد، وهو: الذهاب الى فلاديمير لوبوفسكي، مابين الساعة الخامسة والسادسة، في الغروب، طبعاً. هيّا بنا الى الأمام، الى: بارك شتراسه ١٧، بناية المرسم.

*

لم يكن المرء يستطيع الوصول الى فلاديمير، إلا عبر أعماله؛ إذ أنه كان يبخر لوحاته كلها بالدخان، فكان المرسم برمته مشبعاً بالدخان، بحيث يمكن للمرء التحدث عن السعادة والحظ، إذا ما عثر على أقصر الطرق التي كانت تؤدي الى المصطبة العتيقة المستهلكة التي كان يقيم فيها فلاديمير ليلاً ونهاراً، واليوم كذلك بطبيعة الحال. لم ينهض فلاديمير من مقعده، إنما انتظر «المخدوعين» الثلاثة بهدوء. فتحلقوا حوله، وقد اتخذ كل واحد منهم مقعداً، مثلما اشتهت نفسه، ثم عثروا في مكان ما على شراب الشارتروزيه الأخضر، وعلى سجائر أيضاً. ومن البديهي أنهم سيستفيدون من تلك الأشياء دون سؤال أو جواب، وكذلك بملامح من يضحي بنفسه دائماً من أجل الآخرين. لقد كانت السجائر ممتازة: بالله!

فما كل هذا الذي كان يفعله المرء حبّاً بهذه الحياة البائسة.

أسند الشاعر ظهره الى الخلف وتساءل: «أم أنها ياترى صنيع تافة، هذه الحياة، على الأقل بالنسبة للهواة نوعاً ما، كيف؟»

بيد أن فلاديمير لم يردّ بشيء. لقد كان الجو هناك رائعاً بشكل نادر، في ظل الظلام المعطّر، حيث لايتوجب على المرء أن يفعل أكثر من الكفّ عن الحركة، فيأخذ السكون بيده ويهدهده. . .

«كيف تفعل هذا يالوبوفسكي– فلايوجد أي أثر لرائحة محلول التربنتين.» صرّح الرسّام، فأضاف البارون: «بل على العكس تماماً. هل توجد زهور هنا، في مكان ما؟»

ثم عمّ الهدوء؛ وبقي فلاديمير مختفياً وراء غيومه. بيد أن الثلاثة

كانوا صابرين، مستمتعين بالكثير من الوقت وبشراب الشارتروزيه. كانوا على علم تام بأن لاشيء أفضل من الإنتظار: الإنتظار حتى يأتي الشيء المرتقب من ذاته.

فجأة ثمة:

دخان، فدخان، ولا شيء سوى الدخان، وأعقبته مفردات بطيئة شديدة الرقة، طافت حول العالم، مظهرة اعجابها الشديد عن بعد، وارتفعت الغيوم الى الأعلى، مثل رحلات معراج سريّة.

مثلاً:

المزيد من الدخان، «مما جعل: الناس يحرفون أبصارهم عن رؤية اللّه، ليبحثوا عنه في الضوء الذي كان يزداد حدةً وبروداً، في الأعلى.»

دخان، واللّه كان ينتظر في مكان ما– ينتظر في قرارة الأشياء كلها. عميقاً. حيث الجذور والدفء والظلام.»

بعد ذلك بدأ الشاعر يخطو جيئة وذهاباً. لقد استغرق الشبّان ثلاثتهم بالتفكير في الله الذي كان مقيماً خلف الأشياء؛ في معجزة ما.

وبعد لحظة:

«الإحساس– بالخوف؟» – «لكن لأي سبب؟» وثمة لاشيء سوى الدخان. «إن المرء دائماً مايحلّق فوقه، مثل ثمرة يضع تحتها المرء طبقاً جميلاً، طبقاً ذهبيّاً–مشعّاً بين العرائش. وإذا مانضجت؛ فإنها تسقط بنفسها.»

هنا مزّق الرسّام الدخان بحركة عنيفة مباغتة وهتف: «ياررررب» فعثر في المصطبة على إنسان صغير شاحب الوجه ذي عينين واسعتين عجيبتين، وقد تلفعتا بحزن أبديّ، أطلّ من وراء بريقهما. كانت عيناه سعيدتين سعادة أنثويّة، وكانت يدان باردتين تماماً، حتى أن الرسّام نفسه قد أصبح عاجزاً أمامها، فلم يعد يعرف ماالذي أراده بالضبط. وكان من المناسب جداً أن يتقدم البارون بالقول: «عليكَ أن

ترسم هذا، يا لوبوفسكي-» لكن ماهذا الذي كان يعرفه البارون بدقة!

فأعاد قوله مرة أخرى على أية حال: «فعلاً؛ يا لوبوفسكي.» فبدا كلامه ينم عن غرور وعجرفة، دون أن يكون قد تعمّد ذلك.

في تلك الأثناء قطع فلاديمير طريقاً طويلاً، بدأ بالرعب، ومرّ بالدهشة الغامضة، الى أن وصل في الأخير مبتسماً، وأخذ يحلم بهدوء: «أوه، نعم، غداً.» ثم علا الدخان.

*

أصبح المكان في المرسم لايتسع للثلاثة معاً، فأخذ كل واحد منهم يلكز الآخر، حتى غادروا.

«الى اللقاء، يا لوبوفسكي.»

ومباشرة توقفوا في زواية شارع لكي، يهزّوا أيديهم، مودعين بعضهم، بشدة فائضة عن الحاجة؛ لأنهم كانوا متعجلين للتخلص من بعضهم، فانفصلوا متفرقين.

كان هناك مقهى صغير؛ لاشيء في داخله، سوى المصابيح التي كانت تئز. فبدأ الشاعر يكتب أبياتاً شعرية على ظرف رسالة قديمة، وقد بدا الخط سريعاً على الدوام وناعماً؛ لأنه شعر بأن هناك الكثير؛ الكثير من الأبيات.

وبعد ذلك بخمسة سلالم الى الأعلى، في مشغل الرسّام، حيث يتم التحضير الى الغد، نفض الغبار عن جزمته الطويلة بأغنية؛ ذلك الغبار القديم.

كان ثمة قماش لوحة قد أعدّت وكأنها جبين ساطع النور، حتى أن المرء كان يتمنى أن يتوجها بأكاليل الزهور.

كان البارون الشخص الوحيد الذي لم يزل في الطريق، فابلغ حوذيّ ما: «في الساعة العاشرة والنصف، عند المسرح الأولمبي، أمام المدخل

الجانبي!» ثم واصل البارون طريقه بهدوء. كان أمامه متسع من الوقت، لأخذ قسط من الراحة، قبل حلول الموعد، والاعتناء بهندامه. لكن ليس هناك من كان يفكر في فلاديمير لوبوفسكي.

*

وكان فلاديمير قد قفل بابه، وظلّ ينتظر سقوط الظلام، فجلس هكذا متصاغراً، ضامر الجسد، على حافة المصطبة، وأخذ يبكي في كفّيه البيضاوين المتجمدين. لقد اجتاحته نوبة بكاء، دون أيّ جهد أو مؤثرات عاطفية، فكان البكاء الشيء الوحيد الذي لم يبح به لأحد؛ الشيء الوحيد كان يخصّه وحده؛ البكاء الذي كان يشكّل عزلته.

كيف وصلت الخيانة الى روسيا

كان لي صديق يسكن هنا في الجوار. كان اشقر الشعر، مقعداً، يضع كرسيه صيفاً وشتاءً عند الشبّاك، ويبدو فتيّاً جداً، بل كان أحياناً يلوح في وجهه المنصت شيء من الصبيانية. لكن كانت تأتي أيّام يكون فيها متعب الوجه، بحيث تمضي عليه الدقائق كما لو أنها الأعوام، فيبدو فجأة مثل شيخ عجوز قد فارقت الحياة عينيه المطفأتين. لم نكن نعرف بعضنا منذ زمن طويل؛ وفي البدء كنا نرى بعضنا دوماً، ثم أصبحنا نبتسم على نحو لاإرادي، وبعد ذلك بدأنا نكتفي بالتحية طوال عام كامل، ويعلم اللّه متى كنا نروي، دون اختيار، هذه القصة أو تلك، كما هو الحال الآن.

– «نهارك سعيد؛ إنني لم أرك منذ عهد طويل»، هتفَ عن بعد حينما مررت به. كان شبّاكه مشرعاً في هذا الخريف الثري الصامت.

– «نهارك سعيد يا إيفالد»، قلت وتقدمت من شبّاكه، مثلما كنت أفعل من قبل، ثم استدركت: «كنت مسافراً.»

– «الى أين؟» سأل بعينين متلهفتين.

– «الى روسيا.»

– «أوه! بعيداً هكذا؟» ثم أسند ظهره الى الكرسي، وأضاف «أيّ بلاد هي هذه الروسيا؟ واسعة جداً، أليس كذلك؟»

– «صحيح تماماً.»

– «هل كان سؤالي غبياً؟» ابتسم إيفالد وصار وجهه أحمر.

– «كلا، يا إيفالد، على العكس مما اعتقدت. إن سؤالك أيّ بلاد هذه، جعل أشياءً كثيرة مختلفة تبدو الآن واضحة بالنسبة لي. مثلاً أين تقع حدود روسيا؟»

– «من ناحية الشرق؟» قال صاحبي. وبعد أن فكّرت قليلاً أجبتهُ بالنفي. «من ناحية الشمال؟» بدأ المقعد يبحث عن المكان من جديد، فخطر في ذهني أن أقول له:

– «انظر ياصاحبي! إن قراءة الخرائط قد أفسدت الناس؛ إذ لاشيء فيها سوى السطح والمساحة، وإذا ماأشرت الى جهات العالم الأربع فسيبدو لك وكأنك أنجزت المهمة. لكن البلاد ياصاحبي ليست مجرد أطلس، إنما تحتوي على جبال ووهاد؛ فلابد أن يكون هناك شيء في الأعلى والأسفل تصطدم به البلاد.»

– «همْ!» فكّر صاحبي، «لديك الحق. في أيّ ناحية من هاتين الناحيتين تقع حدود روسيا؟» وفجأة بدا الرجل المشلول مثل صبي صغير؛ فهتفت به:

– «أنك تعلم ذلك.»

– «ربما تقع حدودها عند اللّه؟»

– «بالضبط، عند اللّه»، قلت مؤكداً.

– «هكذا؟!» هزّ صاحبي رأسه بموافقة تامة. وبعد لحظة داخله شكّ وحيد:

– «وهل اللّه دولة؟»

– «لاأظن ذلك، لكن في اللغات البدائية تحمل الأشياء المختلفة اسماً مشتركاً؛ بلاشك إنه مملكة، ذلك يعني أنه اللّه وحده، وكل من يسيطر على هذه المملكة يدعى اللّه ايضاً. إن الكثير من الشعوب البسيطة لاترى، في أغلب الأحيان، فرقاً بين البلاد والقيصر، فالاثنان كبيران ورحيمان معاً، عظيمان ورهيبان.»

– «لقد فهمتكَ. وهل يتحسس الناس في روسيا هذه القرابة؟» قال الرجل القابع عند الشباك ببطء شديد.

– «نعم! إنهم يتحسسونها في كل مناسبة؛ لأن نفوذ اللّه وسلطانه

لاحدود لهما. ومهما جلب المرء أشياءً من أوربا؛ فإنها ستتحول الى أحجار حالما تجتاز الحدود، حتى لو كانت تلك الأحجار نفيسة، إلا أنها ستذهب الى الأثرياء وحدهم، هؤلاء الذين يطلق عليهم الناس لقب (المتعلمين)، بينما يأتي من المملكة الأخرى رغيف الخبز الذي يعيش منه الشعب.»

– «بلاشك أن الشعب هناك ينعم بالرخاء؟»

هنا أصبحت متردداً بعض الشيء:

– «كلا، ليست الحال هكذا؛ لأن الاستيراد من اللّه بات صعباً للغاية إثر اشكالات وملابسات معينة»، حاولت بقولي أن أصرفه عن فكرته، واستدركت: «لكن الناس قد اكتسبوا الكثير من العادات بفعل علاقة الجوار تلك، ومنها المراسيم على سبيل المثال؛ إذ أن الناس هناك يتحدثون الى القيصر كما لو أنهم يتحدثون الى الربّ نفسه.»

– «هكذا إذاً؟ إنهم لايقولون جلالة القيصر؟»

– «كلا، بل يسمون الأثنين أباً.»

– «وهل يركعون أمامهما معاً؟»

– «هناك يلقي المرء بنفسه أمام الأثنين حتى يمس جبينه الأرض ثم يبكي ويقول (إنني مذنب، فسامحني ياأبتي!) ويدعي الألمان الذين يرون ذلك: أن هذا ماهو إلا العبودية بأجلى صورها. لكنني أفكر على نحو مغاير، إذ ماالذي يعنيه الركوع؟ إنه لايدلل إلا على معنى واحد وهو: إنني أخشع لكم ياأبتي؛ لذلك فإن الالمان يدعون أن حسر الرأس وحده يكون كافياً. والتحية والانحناء يعبران الى حد ما عن المهابة والخشوع أيضاً، فهما مجرد اختصارات نشأت في البلدان التي ليس فيها مكان يتسع لكل من يرغب في السجود على الارض؛ إلا أن الإختصارات غالباً ما يؤديها المرء على نحو آلي. إنه لأمر جيد أن يتم

الإحتفاظ بتلك العادة، طالما كانت هناك سعة في الزمان والمكان لاتتيح الإحتفاظ بالمفردة الجميلة والضرورية: أي الخشوع!»

- «نعم؛ فياليتني كنت قادراً على الركوع، لأركع ايضاً.» بدأ المشلول يحلم.

- «أحياناً كانت تأتي أشياء أخرى من اللّه في روسيا»، قلت بعد لحظة توقف. «ويعتقد الناس أن كل جديد يجب أن يؤتى به منه، سواء أكان الجديد هذا ثوباً، أو طعاماً، أو فضيلةً، أو ذنباً؛ فلابد أن يحظى أولاً بموافقته قبل أن يتم استعماله.» فتطلّع اليّ الرجل المريض بشيء من الرعب، فأضفت بعجلة لكي أطمئنه: «إنها مجرد حكايه أسطورية هذه التي أستندُ إليها؛ حكاية يدعونها (بيلينا)، ويمكن أن نقول عنها بالألمانية واقعة تاريخية، كان عنوانها: (كيف وصلت الخيانة الى روسيا).» قلت واتكأت على الشبّاك، بينما أغمض صاحبي المشلول عينيه، مثلما كان يفعل كل مرة عندما ينصت الى حكاية.

«أراد القيصر ايفان الرهيب أن يفرض الجزية على الامارات المجاورة، فهدد الأمراء بحرب شعواء إنْ امتنعوا عن ارسال الذهب الى موسكو، أي الى المدينة البيضاء.

وبعدما تشاور الأمراء فيما بينهم، ردّوا علية بكلام رجل واحد، قائلين: (سنبعث إليك بثلاثة ألغاز، فاقدم علينا في اليوم الذي نعينه لك، هناك، في المشرق، أمام الصخرة البيضاء، حيث نكون مجتمعين؛ فإن كانت الإجابة صحيحة، اعطيناك براميل الذهب الاثني عشر التي طلبتها).

في البدء فكّر القيصر ايفان فاسيليفج في الأمر، لكنه سرعان ماشعر بالضيق من النواقيس الكثيرة التي كانت منتشرةً في مدينة موسكو البيضاء، فدعا اليه حاشيته المتعلمة ومجالسه الاستشارية. بعد الإجتماع أصدر القيصر أمراً بأن يقاد كل من كان يعجز عن حل

الأسئلة الى الساحة الحمراء الواسعة، حيث كانت تشيّد آنذاك كنيسة فاسيلي العاري، ليدق عنقه.

كان الزمن يمر به سريعاً أثناء تلك الانشغالات، حتى وجد القيصر نفسه يرحل ذات يوم الى المشرق، الى الصخرة البيضاء، حيث كان الأمراء ينتظرون. لم يكن في ذهنه وقتها حلّ واحد للأسئلة الثلاثة، لكن، مادامت الرحلة طويلة؛ فإن امكانية العثور على حكيم في الطريق كانت كبيرة؛ لأن الكثير منهم قد هجروا ديارهم هرباً. لقد كانت للملوك، كلهم، عادة عجيبة؛ إذ كانوا يقطعون رأس كل من لا يبدو لهم حكيماً على نحو كاف.

لكن القيصر لم يلتق بأحد من أولئك الحكماء، إلا أنه رأى ذات صباح فلاحاً كثيف اللحية يشيّد كنيسة. كان الفلاح العجوز منشغلاً بتثبيت السقف، ليضع فوقه الواحاً صغيرة الحجم. كان مما يبعث على الدهشة حقاً هو إنه كان ينزل من السقف كلّ مرّة، ليلتقط خشبة واحدة دقيقة الصغر من الأخشاب المرصوفة فوق بعضها، بدلاً من أن يحمل حزمة كاملة على قفطانه الواسع العريض. كان عليه أن يصعد ويهبط السلّم بلا انقطاع، وبدا واضحاً أنه لو استمر على هذا النحو فسيكون من المستحيل أن يسمّر مئات الألواح في مكانها. لذلك نفد صبر القيصر، فصرخ بالرجل «يا أحمق!» (هكذا كان يُسمى الفلاحون في روسيا)، «يجب أن تتحلى بقليل من الحكمة والمهارة، فتحمل حزمةً من الخشب، بدلاً من لوحة واحدة، وبعدها تتسلق كنيستك؛ فإن هذا أسهل لك بكثير من الهبوط والصعود!»

توقف الفلاح، الذي كان في أسفل الكنيسة لحظة، ثم أطبق يده على عينيه وقال «عليك أن تترك الأمر لي، ياقيصر ايفان فاسيليفج، فأنا أدرى به، وكلّ منّا يفهم صنعته على وجه أفضل من الآخر. وبالمناسبة، طالما أنك مررت بجوادك من هنا؛ فإنني أريد ايضاً أن أعطيك حلّ

الألغاز الثلاثة التي عليك أن تعرفها قبل وصولك الى الصخرة البيضاء في المشرق والتي لاتبعد كثيراً من هنا. » وفي الحال فكّ له شفرة الأحاجي الثلاث المعقدة الحل، واحدةً تلو الآخرى، لدرجة أن القيصر نسي أن يشكره من فرط دهشته.

لكنه أخيراً سأله: «ماهو الأجر الذي يجب أن أقدمه لك إزاء مافعلت؟»

فقال الفلاح «لاشيء» ، ثم تناول لوحاً وصعد السلّم.

«قفْ!» أمره القيصر وأضاف «هذا غير مسموح به قط. وعليك أن تطلب شيئاً لقاء ماصنعت. »

«إنْ كان لابد من ذلك، مثلما أمرتني ياأبتي؛ فإنني أطلب منك برميلاً واحداً من الذهب الذي ستأتي به من أمراء المشرق. »

«طيّب» ، هزّ القيصر رأسه ايجاباً، «سأهبك برميلاً من الذهب. » ثم ركب جواده وانطلق على عجل قبل أن ينسى الحلول.

بعدما عاد القيصر من المشرق بالبراميل الأثني عشر، قفل على نفسه القصر في قلب الكرملين ذي البوابات الخمس، ونثر الذهب فوق بلاط الديوان الشديد البريق، فنشأ جبل حقيقي من الذهب، والقى بظلاله الطويلة السوداء على الارض. كان القيصر قد أفرغ البرميل الثاني عشر بسبب نوبة سهو أصابته، فأراد أن يعبئه من جديد، لكنه شعر بالحزن؛ لأنه سيقتطع من تلك الكومة الرائعة قدراً كبيراً من الذهب. وفي المساء تسلل القيصر الى فناء القصر، وعبّأ ثلاثة أرباع البرميل بالرمل الناعم ثم عاد الى ديوانه خلسةً، وغطى البرميل بطبقة من الذهب، وكلّف رسولاً بحمله صباحاً الى الطرف البعيد من روسيا، حيث كان الفلاح العجوز يقيم كنيسته.

عندما لمح الفلاح رسول القيصر قادماً، هبط من السقف الذي لم يكن قد أنجزه بعد، وهتف بالرسول : «قفْ مكانك! فلاتقترب مني

ياصاحبي. وعد ببرميلك الذي يحتوي على ثلاثة أرباع من الرمل وقدر قليل من الذهب؛ فإنني لست بحاجة إليه. وابلغ سيّدك بأنه حتى الآن لم تقع خيانة في روسيا، لكنه إذا لاحظ ذات يوم أنه غير قادر على وضع ثقته بإنسان؛ فإن ذلك كان من صنع يده وحده. لقد أسفر القيصر عن خيانته، وسيجد مثاله من قرن الى قرن أتباعاً ومقلدين في روسيا كلها. إنني لست بحاجة الى الذهب؛ إذ أنني أستطيع الحياة بدونه، ولم أكن يوماً قد انتظرت منه ذهباً، بل كنت انتظر الحقيقة والاخلاص، غير أنه قد خيّب ظنّي. فأذهب وابلغ هذا الكلام لسيّدك القيصر ايفان فاسيليفج الرهيب، الذي يقبع في مدينته، مدينة موسكو البيضاء، بضمير شرير وثياب من ذهب.»

وبعد مسافة سير قصيرة التفت الرسول الى الخلف، لكنه لم يجد أثراً للفلاح أو الكنيسة؛ لقد اختفت حتى الألواح التي كانت مرصوفة فوق بعضها، واستوت الارض، وتحوّل المكان الى فراغ هائل. فخبّ الرسول جواده، عائداً الى موسكو بقلب خافق مرتعب، ثم وقف أمام القيصر يلهث، مقطوع النفس، وقصّ عليه ماحدث بعبارات مفككة، غير مفهومة، ثم قال إن ذلك الفلاح المزعوم لم يكن سوى الله نفسه!»

فسأل صاحبي المقعد بصوت خفيض بعدما انتهيت من حكايتي:

«وهل كان الرسول محقاً في ادعائه؟» فقلت:

– «ربما! لكن الشعب دائماً مايؤمن بالخرافات. والآن يجب أن أذهب.»

– «ياللاسف! ألا تريد أن تروي لي قصة أخرى قريباً؟» قال المشلول بنبرة صادقة.

– «سأفعل ذلك بكل سرور، لكن تحت شرط واحد.»

– «وهو؟» سأل ايفان بدهشة.

- «أن تعيد كل ما سأرويه لك على أطفال الجيران في والوقت المناسب.»

- «أوه، الاطفال! إنهم لايزورونني الآن إلا نادراً.» فقلت له مواسياً:

- «لكنهم سيأتون بلاشك. يبدو أنك لم ترو لهم في الآونة الأخيرة شيئاً. ربما لم يعد لديك ماترويه، أو أن محتوى ماسترويه يبدو كبيراً؛ وهل تعتقد لو أنك كنت تحتفظ بخامة جيدة، فأنها ستبقى مخبئة؟ أقسم لك بأن الحكايات سرعان ماتنتشر، ولاسيما بين الأطفال.»

- «الى اللقاء إذاً.» قال مودعاً.

وفي مساءاليوم ذاته سمع الأطفال الحكاية.

حفّار القبور

بعد وفاة حفّار القبور العجوز في سان روكو تمّ وضع إعلانات يومية، بغية اشغال تلك الوظيفة الشاغرة، بيد أن ثلاثة أسابيع أو أكثر قد مضت دون أن يتقدم أحد بطلب. وبما أنه لم تقع طوال تلك الفترة حادثة وفاة واحدة؛ فإن الأمر بدا ليس ملحّاً، وفضّل الناس الانتظار بهدوء. وبعد فترة من الانتظار وصل الغريب الذي سيشغل الوظيفة ذات مساء من شهر مايس. غيتا، ابنة المختار، كانت أول من لمحه حين خرج للتو من غرفة أبيها، لكنها لم تره مقبلاً. ومباشرةً اتجه الغريب نحوها كما لو أنه أراد أن يلتقي بها في الممر المعتم.

«هل أنت ابنته؟» سألها بصوت خافت، مشدداً على كل كلمة قالها بلكنة أجنبية، فهزّت غيتا رأسها، ومرقت من جانبه عندما تقدم من إحدى النوافذ الواطئة التي سقط عليها سكون ولمعان الزقاق الغارق في الظلام؛ وهناك حدقّ أحدهما في الآخر باهتمام كبير. تمعنت غيتا بعمق في الرجل الغريب، وتفحصته، قبل أن تنتبه الى أنه، نفسه، كان يراقبها طوال تلك الدقائق التي وقفت فيها ترمقه بنظراتها. كان فارع الطول، نحيفاً، وقد ارتدى ثياب سفر سوداء غريبة الطراز، وكان شعره أشقر، مصففاً بعناية على طريقة النبلاء، وقد نمّ مظهره عموماً عن مسحة نبل؛ فمن الممكن أن يكون معلماً أو طبيباً، بيد أن ما أثار العجب هو أنه كان حفاراً للقبور.

تلمست غيتا يديه معاً، وبتلقائية، بعد أن شرعهما أمامها كالطفل، وقال: «إنه ليس عملاً صعباً» ، وبرغم أنها كانت تتطلع الى يديه، فقد شعرت، في الوقت ذاته، بابتسامة شفتيه، حيث وقفت

قبالته كما لو أنها وقفت تحت أشعة الشمس. سارا بعد ذلك حتى مدخل الدار، فتراءت أمامهما الجادة مظلمة.

قال الغريب: «هل المقبرة بعيدة؟» ثم تطلع الى البيوت من الأعلى، ومدّ بصره حتى نهاية الزقاق الذي كان خالياً تماماً: «كلا ليست بعيدة، سأقودك إليها، لأنك لاتعرف الطريق، أيها الغريب.»

«هل تعرفين الطريق؟» سألها الرجل بجديّة.

«بلى، أعرفه جيداً. لقد اعتدت السير فيه وأنا طفلة صغيرة؛ لأنه يؤدي مباشرة الى الأم التي انتزعت منّا في وقت مبكر. إنها راقدة هناك، في الخلاء، وسأريك مكانها.»

سارا من جديد صامتين، وبدا وقع خطاهما في السكون مثل خطوة متوحدة. فجأة قال الرجل المتلفع بالسواد: «كم هو عمرك، يا غيتا؟»

«ستة عشر عاماً، ويكثر كل يوم قليلاً.» فابتسم الغريب. «لكن»، أضافت وهي تبتسم أيضاً، «كم هو عمرك أنتَ؟»

«كبير، أكبر بكثير منكِ، يا غيتا، أكبر منك مرتين، وكل يوم يتقدم بي السنّ وأزداد كبراً.»

وقفا أثناء ذلك أمام بوابة المقبرة.

«هناك، ذلك هو البيت الذي ستقيم فيه الى جانب مستودع الجثث.» قالت الفتاة وأشارت عبر قبضان البوابة المشبكة الى طرف المقبرة، حيث انتصب بيت صغير يغطيه اللبلاب.

«نعم، هكذا، هذا هو البيت»، هزّ الغريب رأسه، وأخذ يتأمل موطنه الجديدة من طرف الى آخر، ثم سأل: «لابد أن يكون شيخاً مسنّاً ذلك الدفّان الذي أقام هنا؟»

«نعم، كان طاعناً في السنّ. كان يقيم هنا مع زوجته العجوز التي انتقلت بعد وفاته مباشرة، لاأعلم الى أين.»

لم يقل الغريب سوى «هكذا إذاً»، ثم بدا وكأنه فكّر في موضوع

آخر. وعلى حين غرة التفت الى غيتا: «يجب أن تذهبي الآن، ياابنتي، لقد تأخر الوقت، ألا تخافين الرجوع بمفردك؟»

«كلا، إنني وحيدة دائماً. لكن أنتَ، ألا تخاف البقاء هنا وحيداً؟»

طوح الغريب برأسه، ثم أمسك بيد الفتاة وضغط عليها برقة: «إنني أيضاً وحيد دائماً.» قال بصوت خافت، فهمست الصبية بانفاس متقطعة «انصتْ!» فانصتا معاً الى طائر طفق يغرّد في حرش كثيف عند حافة المقبرة، فغمرهما تردد الصوت المترقرق كما لو أنهما غرقا بالطرب والحنين معاً.

في صباح اليوم التالي بدأ دفّان سان روكو يمارس مهنته، وكان يؤدي عمله بفطنة ودراية نادرتين، فأعاد ترتيب المقبرة كلها وجعل منها بستاناً واسعاً، وبذلك فقدت القبور العتيقة حزنها الذي كان يشغل الفكر ويبعث على التأمل، واختفت معالمها تحت براعم الزهور وإنحناءات الأغصان المتسلقة. وهناك، على جانب الممر الوسطي، حيث نبتت الأدغال باهمال، سوّى الرجل بيوتاً مستطيلة كثيرة للزهور، تشبه القبور في الجهة المقابلة، لدرجة أن جهتي المقبرة أصبحتا متناظرتين متعادلتين. وبات الناس القادمون من المدينة لايعثرون بالسهولة المعتادة على قبور ذويهم، وقد حدث في بعض الأحيان أن تجثو عجوز ثكلى عند بيت زهور خال من عزيزها في الجهة اليمنى من الممر الوسطي، ثم تجهش بالبكاء، دون أن تخطىء صلاتها الطريق المباشر الى ابنها الذي رقد في الناحية الأخرى تحت شقائق النعمان، بيد أن أهالي سان روكو الذين كانوا يشاهدون المقبرة لم يعدوا يعانون كثيراً من وطأة الموت.

وإذا ماتوفّى أحد ما (بدأ الموت يقتطف أرواح المسنّين في ذلك الخريف العجيب)؛ فإن الطريق الى هناك يبدو طويلاً للغاية وموحشاً،

لكنه يتراءى عن بعد مثل احتفال صغير هادىء، فتبدو الزهور وكأنها تحث الخطى، متقدمة من جميع الجهات حتى تغطي الحفرة العميقة المظلمة، لدرجة يمكن معها القول إن فم الأرض الأسود قد انفرج قليلاً ليطالب بالزهور، بالآلاف من الزهور.

كانت غيتا تراقب هذه التطورات؛ لأنها غالباً ماكانت ترافق الغريب، وتقف الى جانبه أثناء العمل، وتطرح عليه أسئلة، وهو يجيب عليها. كانت أحاديثهما تحمل إيقاعات الدفن، ولاتقطعها سوى الجلبة التي تحدثها المسحاة على الدوام.

«من مكان بعيد، في الشمال» ، ردّ الغريب على سؤالها: «من أي جزيرة قدمتَ» ، ثم انحنى ليقتلع الأدغال، «من البحر. من بحر آخر، (أسمعه يتنفس عميقاً في الليل، برغم أنه يبعد مسيرة يومين) ؛ بحر لاعلاقة له ببحركم، فبحرنا رمادي، شديد القسوة، جعل من الناس المقيمين هناك مقهورين مهمومين. وفي الربيع يحمل أعاصير لامتناهية، فيتوقف كل شيء فيها عن النمو، ويمضي شهر مايس دون أن يستفيد منه أحد، وفي الشتاء يتجمد البحر، فيتحوّل أهل الجزيرة الى رهائن.»

«هل يسكن في الجزيرة كثير من الناس؟»

«كلا، ليس كثيراً.»

«والنساء أيضا؟»

«وكذلك النساء.»

«والأطفال؟»

«نعم، الأطفال أيضاً.»

«والموتى؟»

«بل الكثير من الموتى؛ لأن هناك أعداداً كبيرة منهم يقذفها البحر ليلاً على الشطآن، حتى أن من يراها لم يعد يشعر بالرعب، إنما يكتفي

بهزّ رأسه، كأي إنسان يعلم بالأمر منذ زمن طويل. ثمة شيخ طاعن في السنّ كان يقيم معنا، قد حدثنا ذات مرة عن جزيرة جلب لها البحر أعداداً هائلة من الموتى، لدرجة أنه لم يبق فيها مكان للأحياء الذين أصبحوا مطوقين بالجثث. كانت تلك مجرد حكاية، ولعلّ الرجل الذي رواها لم يكن على صواب، فأنا شخصياً لم أصدقها، إنما أنا كنت، ومازلت، مقتنعاً بأن الحياة أشد قوةً من الموت.»

صمتت غيتا برهة قصيرة، ثم قالت: «وبرغم ذلك؛ فإن الأم قد رحلت عن الحياة.» فتوقف الرجل الغريب عن العمل وأتكأ على المسحاة.

«بلى، علمت أن امرأة قد توفيت، لكنها، هي نفسها، تمنت الوفاة.»

«نعم» ، قالت غيتا بنبرة جادة، «أستطيع أن أتخيل أن هناك من يرغب في ذلك.»

«معظم الناس يرغبون في الموت، ولهذا السبب لايموت إلا القلائل من أولئك الذين يريدون الحياة، فينتزعون هكذا دون أن يسألهم أحد. لقد طفتُ في أرجاء بعيدة من العالم، وتحدثت، يا غيتا، مع أناس كثيرين، وسألتهم عن مكنونات قلوبهم، فلم أعثر على واحد منهم لم يكن يرغب في الموت. أجل، هناك من أدعى العكس، لكن الخوف قد أكّد موقفه الحقيقي، فما هذا الكلام الذي يتقوله الناس! كانت إرادتهم تختفي وراء ذلك الإحساس؛ تلك الإرادة التي لم تنطق بحرف واحد، لكنها ارتمت على الموت، مثلما ترتمي ثمار الأشجار على الأرض، وفي تلك الحالة يكون من الصعب ايقافها.»

وجاء الصيف، فكانت غيتا تقف الى جانب الرجل الغريب القادم من الشمال، في كل يوم كان يبدأ باستيقاظ الطيور، فقام أهلها يحذرونها ويعاتبونها، قبل أن يلجأوا الى إستخدام القوة والعقوبة،

لعلها ترتدع، غير أن تلك المحاولات كلها لم تجد نفعاً. لقد أصبحت غيتا من نصيب الغريب كالميراث؛ وذات مرة طلب منه المختار الحضور ليستجوبه. كان المختار رجلاً عظيم الجسد ذا صوت راعد مهدد، لكن الغريب ردّ على الاتهامات كلها بهدوء، وهو يقف منحنياً قليلاً الى الأمام:

«إن لكَ صبية وحيدة، ياسيد فيغنولا! ثم أنني لاأستطيع منعها من أن تكون قريبة منّي أو من أمّها. فضلاً عن أنني لم أقدم لها هدية ولم أعدها بشيء ولم أهتف باسمها طالباً منها المجيء مرة واحدة.» قال كلامه هذا باحترم وهيبة وثقة عالية بالنفس، ثم انصرف؛ لأنه نطق بماأراد ولم يعد هناك مايمكن اضافته.

كان البستان قد بدأ آنذاك بالتفتح وأخذ يتسع، مخترقاً أركانه الشجرية الأربعة. أحياناً كان ينتهيان من العمل في ساعة مبكرة من المساء، فيجلسان أمام الدار، ويتطلعان الى الغروب الذي كان يهبط على نحو مترفع شديد السكون. حينئذ كانت غيتا تطرح أسئلتها والغريب يجيبها. وأثناء ذلك كانت تحلّ لحظات صمت طويلة، فتقوم الأشياء نفسها بمخاطبتهما.

«أريد اليوم أن أحدثكِ عن رجل، وكيف أن زوجته التي أحبها قد توفيت»، بدأ الغريب بعد صمت، وأخذت يداه ترتجفان وترتطمان ببعضهما. «حدث ذلك ذات خريف؛ كان الزوج يعلم بأنها سترحل، كما أن الأطباء قد تنبأوا بموتها، بيد أن الأطباء معرضون للخطأ أيضاً، لكن المرأة نفسها تحدثت عن الرحيل قبل هؤلاء كلهم بزمن طويل، فلم تخطأ.»

«هل أرادت الموت؟» سألت غيتا؛ لأن الغريب توقف فجأة عن الكلام.

«نعم؛ كانت تلك رغبتها، يا غيتا. لقد تمنت شيئاً آخر غير هذه

الحياة. كان هناك أناس كثيرون يحيطون بها، بينما كانت هي وحدها تنشد العزلة. نعم، كانت تتمنى العزلة. وعندما كانت صبية صغيرة، لم تكن وحيدة منقطعة مثلك، وبعد زواجها أدركت أنها كانت وحيدة، لكنها أرادت أن تكون وحيدة دون أن تعلم.»

«ألم يكن زوجها رجلاً طيباً؟»

«نعم؛ كان رجلاً طيباً، وكان يحبها حبّاً كبيراً، وكانت هي بدورها تبادله الحبّ، ومع ذلك، ياغيتا؛ فإنهما لم يتحسسا بعضهما. إن الناس كلهم منفصلون عن بعضهم بشكل مرعب، أمّا أولئك الذين يكنّون الحبّ الى بعضهم؛ فإنهم أشد الناس فرقة وإنفصالاً، وهم كثيراً مايبعثرون أشيائهم، لكنهم لايلتقطونها ثانية، فتبقى تلك الأشياء راقدةً متراكمةً أمامهم، وتزداد تراكماً الى أن تمنعهم الأكوام في الأخير من الرؤية السليمة ومن الاقتراب الحقيقي. لكنني أردت أن أحدثكِ عن المرأة التي فارقت الحياة. لقد رحلت هكذا بكل بساطة. كان الوقت فجراً، وكان زوجها لم ينم طوال الليل، إنما جثا الى جانبها ينظر إليها وهي تحتضر. فجأة نهضت المرأة ورفعت رأسها الى الأعلى، وبدت حياتها وكأنها عادت الى وجهها الذي احتشدت فيه مئات الزهور التي غرست بين ملامحها. لكن بعد ذلك جاء الموت، فانتزع وجهها بخفقة واحدة كما لو أنه انتزعه من طين رخو، ثم ترك وجهها عارياً مخلوعاً، مستطيلاً ومستدقاً. فبقيت عيناها مفتوحتين؛ وكلما حاول أطباقهما، إنفتحتا من جديد، مثلما تنفتح الصدفتان اللتان مات في داخلهما الحلزون؛ ولأن الزوج لم يعد يحتمل رؤية عينين مفتوحتين ولاتبصران، هرعَ الى الحديقة وقطف برعمين خشنين، متأخريّ التفتح، ووضعهما على جفنيها بمثابة ثقل. إثر ذلك انطبقت العينان، فجلس الزوج، وظلّ يحدق في وجه المتوفية وقتاً طويلاً. وكلما استغرق في التحديق، تراءى له بوضوح أن موجات خفيفة من الحياة مازالت

تتمدد بارتخاء على قسمات وجهها قبل أن تنسحب ببطء من جديد. فتذكر على نحو مبهم أنه كان قد حدّق في وجهها ذات مرة، وفي ساعة جميلة، رائعة الجمال، من ساعات هذه الحياة، فأدرك أن ذلك الوجه كان يمثل حياتها المقدسة التي عجز عن أن يكون خليلاً لها. إن الموت لم يتمكن من إخراج الحياة من أعماقها، إنما انخدع بتلك الكثرة التي تكثفت في ملامحها، وهذا في الواقع ماتمكن من انتزاعه، الى جانب معالم وجهها المرهفة. بيد أن الحياة الأخرى كانت مستقرة في أعماقها، وقد فاضت قبل برهة قصيرة، ووصلت الى الشفتين الصامتتين، لكنها انسحبت آنذاك مرة أخرى، وأخذت تغمرها من الداخل دون جلبة، مجتمعةً هناك، في مكان ما، فوق قلبها المتصدع. أمّا الرجل الذي كان قد أحب تلك المرأة حبّاً مرتبكاً عاجزاً، مثلما كان حبّها له؛ فإن نوبة من الحنين العارم قد اجتاحته مرّة واحدة، في تلك اللحظة التي نجت فيها من الموت. ألم يكن هو وحده صاحب الحقّ في استقبالها ثانية؟! ألم يكن هو وحده وريث زهورها وكتبها وثيابها الناعمة التي مازالت تنضح بعطر جسدها بلا انقطاع؟! غير أنه لم يكن يعرف كيف يتشبث بالدفء الذي كان يتسرب من وجنتيها، ولم يكن يعرف كيف يستطيع الامساك به، ولا بأي أداة يغرفه! فتلمس يد الميتة، تلك اليد الفارغة المفتوحة مثل قشرة ثمرة أبعدت عنها النواة؛ تلك اليد الراقدة على الغطاء والتي كانت برودتها متساوية، خرساء، تولّد شعوراً بأنها ظلّت طوال الليل راقدةً تحت الندى، لتصبح باردةً على وجه السرعة، وجافةً بفعل ريح الصباح. فجأة تحرك شيء ما في وجه الراحلة، فتطلع إليها الزوج بانفعال وتوتر، لكن سرعان مابدا كل شيء ساكناً؛ غير أن البرعم الذي وضعه فوق العين اليسرى قد ارتجف على حين غرّة، فرأى الرجل الزهرة التي أثقلت العين اليمنى وقد كبرت، وصارت تكبر باستمرار. لقد اعتاد الوجه على الموت شيئاً فشيئاً، لكنّ الزهرتين

تفتحتا مثل عينين كانتا تتطلعان الى حياة أخرى. وعندما حلّ المساء، مساء ذلك اليوم الشديد الصمت، حمل الرجل زهرتين غامقتي الإحمرار، كبيرتين، حملهما بيد مرتجفة ثم وضعهما عند النافذة. ومن خلال هاتين الزهرتين المترنحتين من فرط الثقل حمل الرجل أيضاً حياتها التي لم يستطع الامساك بها أبداً.»

هنا أسند الغريب رأسه بيده، وجلس ثم توقف عن الحديث، وعندما تحرّك ثانية، سألته غيتا:

«وبعد ذلك؟»

«بعد ذلك رحل الرجل، رحل بعيداً، فماالذي كان عليه أن يفعله سوى الرحيل؟ إنه لم يكن مؤمناً بالموت، بل كان مؤمناً بأن الناس غير قادرين على الالتقاء ببعضهم والإنسجام مع أنفسهم، الأحياء منهم والأموات. وهذا هو سرّ بؤسهم، وليس لأنهم يموتون ذات يوم.»

«نعم؛ إنني أعرف ذلك، فيا للأسف، إن المرء يعجز عن تقديم المساعدة»، قالت غيتا بحزن. «ذات مرة كان عندي أرنب صغير أبيض. كان أليفاً تماماً، ويشعر بحضوره من خلال وجودي معه، لكنه أصيب بمرض، فانتفخت رقبته، وصار يشعر بالألم كالإنسان، وبدأ ينظر إليّ بتوسل. كان فعلاً يتوسل إليّ بعينيه الصغيرتين آملاً ومعتقداً أيضاً بأنني قادرة على مساعدته. وفي الأخير تخلى عن النظر إليّ، وفارق الحياة في حضني وكأنه وحيد منقطع، بعيد عنّي مئات الأميال.»

«غيتا، على المرء أن لا يعوّد نفسه على تربية الحيوان، وهذه حقيقة ثابتة؛ إذ أنه سيتحمل ذنباً كبيراً جرّاء ذلك؛ لأنه يعد بشيء لا يستطيع الإيفاء به. إن نصيبنا الفشل المتواصل في هذا النوع من المخالطة. ولايختلف الأمر مع البشر، والفرق الوحيد هو أن الرجل والمرأة عادة مايكونان مذنبين بحقّ بعضهما، ذلك يعني أنهما يحبان بعضهما:

أي أن أحدهما يرتكب الذنب بحقّ الآخر، ولاشيء أكثر من ذلك، غيتا، لاشيء أكثر من ذلك.»

فقالت غيتا: «أعلم تماماً، لكنه أمر صعب جداً.» ثم وضعا يدا بيد، وأخذا يتجولان حول مقبرة الكنيسة، دون أن يفكرا في أن الأمر يمكن أن يصبح مختلفاً عما كان عليه.

وهذا ماكان عندما جاء شهر أيلول، ففي يوم من أيام أيلول بدت أزقة المدينة وكأنها قد أصيبت بالحمّى، وأصبحت ثقيلة مقبضة، خالية حتى من الريح. كان الغريب يقف آنذاك منتظراً غيتا عند المقبرة؛ كان شاحباً وجاداً في آن واحد.

«غيتا، لقد حلمت حلماً سيئاً في غاية السوء»، هتف بها عن بعد، «هيّا، أرجعي الى البيت، ولاتحاولي أبداً المجيء الى هنا قبل أن أبلغك بضرورة الحضور. ربما سيكثر عملي الآن. وداعاً.» ألا أنها ألقت بنفسها عليه وأخذت تبكي، فتركها تستغرق في البكاء فترة طويلة، مثلما رغبت، ثم شيعها ببصره عندما غادرت.

لم يكن الغريب مخطئاً في تقديره، فقد بدأ العمل الجديّ فعلاً، وبدأت مواكب التشييع بالتقاطر الآن، مرتين أو ثلاث مرات في اليوم، يتبعها عدد غفير من الناس.

كانت تلك بمثابة مراسيم احتفالية باذخة، لاتخلو من البخور والأناشيد، لكن الغريب كان يعلم بما لم ينطق به أحد بعد: لقد اجتاح الطاعون المدينة! فأصبحت النهارات ساخنة على الدوام، تحت خيمة السماء المميتة، وصار الليل يأتي دون أن يخفف من حرارتها، ودبّ الفزع في تلك الأيادي التي كانت تمارس حرفاً يدوية، وتمكن الهلع من القلوب التي كانت تنضح ذات يوم بالحبّ، فأصابها بالشلل. كان الصمت قد خيّم على البيوت، مثلما كان يخيّم في المناسبات الكبرى، أو بعد منتصف الليل، فامتلأت الكنائس بالوجوه الخائفة المذعورة،

وأخذت النواقيس تقرع، مفجرةً أجراسها المدوّية: كما لو أن حيوانات متوحشة كانت تعبث بالنواقيس، وتتشبث بحبالها؛ هكذا كانت النواقيس تقرع لاهثة متقطعة الأنفاس.

بدا الدفّان وكأنه الشخص الوحيد الذي كان يمارس مهنة منتظمة، فاشتد ساعداه بفعل المتطلبات والممارسات الشاقة التي اقتضتها وظيفته، وبدأ يشعر بالفرح والبهجة الى حد ما، بهجة دمه الذي كان يتدفق بسرعة غير معهودة.

ذات صباح، عندما استيقظ بعد اغفاءة قصيرة، لمح غيتا تقف أمامه:

«هل أنتَ مريض؟»

«كلا، كلا.» وشيئاً فشيئاً أدرك ماروته له بارتباك ولهوجة. قالت إن أهالي سان روكو في طريقهم إليه، يريدون قتله، «لأنك جلبت لهم الطاعون حسب اعتقادهم. لقد أقمت هضبة في الناحية الخالية من المقبرة، وحفرت فيها قبوراً، كما قالوا، ثم أخذت تنادى على الجثث، مستعيناً بالقبور نفسها؛ فاهرب من هنا، اهرب!» توسلت به غيتا، وجثت على ركبتيها باندفاع وقوة كما لو أنها سقطت من قمّة برج.

وفي الطريق لاح حشد مظلم، يمكن رؤيته وهو يتسع ويتقدم، تسبقه زوبعة من الغبار، ويتعالى لغطه المبهم الذي انفصلت عنه بضع مفردات متوعدة مهددة. فوثبت غيتا، فسقطت على ركبتيها ثانية، وحاولت أن تجذب الغريب إليها، لكنه ظل منتصباً كالصخرة، وأمرها أن تدخل داره وتنتظر، فانصاعت لأمره، وتربعت في الدار خلف الباب، وقلبها يخفق بعنف، اهتزت له شرايين عنقها وذراعاها مروراً بأعضائها كلها.

كانت الحجارة الأولى قد انطلقت، ثم أعقبتها الحجارة الثانية، فكان يمكن سماع سقوطها فوق السياج الشجري. حينئذ لم تعد غيتا

قادرة على التحمل، فجذبت الباب بشدّة، وهرعت نحو الحجارة الثالثة التي شجّت جبهتها، فتلقفها الغريب عندما انهارت، وحملها الى داره الصغيرة المعتمة. بدا الشعب غاضباً هائجاً، وأصبح قريباً تماماً من سور الأحراش المنخفض الذي لم يكن قادراً على إيقاف تقدمه. وفي تلك اللحظة بالذات حدث شيء مرعب؛ شيء عصيّ على التصديق: إذ علقَ فجأة كاتب العرائض الأصلع، تيوفيلو القصير، بالحداد المقيم في جادة فيكولا (سما ترينيتا) الذي كان يقف الى جواره، فأخذ يترنح، وعيناه تتقلبان على نحو غريب. وفي الصفّ الثالث بدأ أحد الصبيان يرتجف بفعل الدوار، وكانت خلفه إمرأة حبلى تصرخ وتستغيث، وكان الناس المحتشدون كلهم يعرفون هذا الصراخ، ففروا مذعورين مهوسين. هنا ارتجف الحداد الضخم الجرم، القويّ الجسم، وأخذ يهزّ ذراعه التي علق بها كاتب العرائض كما لو أنه أراد أن يطرحه أرضاً، وصار يختض ويختض...

وفي الدار الصغيرة استعادت غيتا الممددة على الفراش وعيها وبدأت تنصت لما يحدث.

«لقد تفرقوا»، أبلغها الغريب الذي انحنى عليها، لكن غيتا لم تستطع رؤيته، فتحسست وجهه لعلها تعرف مكانه. بدا لها وكأنها قد أمضت معه زمناً طويلاً، مع الرجل الغريب، أعواماً وأعواما.

ثم باغتته بالقول: «ليس الزمن وحده هو الذي يخلق هذا الإحساس، أليس كذلك؟»

«كلا، يا غيتا؛ إن الزمن لاعلاقة له بالأمر.» كان يعلم تماماً ماالذي عنته بقولها. وهكذا فارقت غيتا الحياة، فحفر لها قبراً في نهاية الممر الوسطي، عند الحصى اللامع النقي. ثم أطل القمر فبدا وكأنه كان يحفر في منجم فضّة، فمهدها الغريب على الزهور، وغطاها بالزهور أيضاً. «أيتها الحبيبة»، قال ووقف لحظة متلفعاً بالصمت؛ إلا أنه

سرعان ما واصل عمله من جديد كما لو أنه خشي من توقفه وتأمله. كانت هناك سبعة توابيت تنتظر الدفن، ولم يكن لها أتباع ولامشيعيون، ومن بينها تابوت عريض، قد سمّر من خشب البلّوط، وكان يضم جثمان المختار جيان-باتست فيغنولا. لقد أصبح كل شيء مختلفاً تماماً، ولم تعد للعزة والكرامة أيّ قيمة؛ فبدلاً من الميّت المفرد الذي كان يتبعه الكثير من الأحياء، صار يأتي أحد الأحياء ويجلب معه، بعربته، ثلاثة أو أربعة توابيت. وقد حوّل بيبو الأبرص هذا الموضوع كله الى تجارة، بينما كان الغريب يقوم باعمال المسح، للتأكد من سعة المكان. لم يعد المكان المتبقي يتسع إلا لخمسة عشر قبراً، فانهمك الغريب في العمل من جديد، فكانت ضربات مسحاته الصوت الوحيد الذي كان يسمع في هدأة الليل، حتى تناهى الى سمعه ذات يوم بأن الموت صار يعيث مجدداً في المدينة، ولم يقدر أحد على التصدي له، أو منعه من الإنتشار، كما أن أمره لم يعد خافياً على أحد.

وكان كل من يجتاحه الوباء، أو يصاب بالذعر منه، يستعين بالصراخ، فيصرخ ويصرخ الى أن يفارق الحياة. وأصبحت النساء يخافن حتى من أطفالهن، ولم يعد أحد يعرف الآخر، كما لو أن الناس كلهم كانوا يعيشون في الظلام المكفهر. وكان هناك نفر من اليائسين الذين كانوا يقيمون الولائم، ثم يلقون بالغانيات، اللواتي يبدأن بالترنح، من النوافذ، خوفاً من اصابتهن بالوباء.

لكن الغريب وحده كان يواصل الحفر، شاعراً بأنه قد أصبح سيّد المكان الممتد بين هذه الأسوار الشجرية الأربعة، وطالما كان يأمر الناس، ويرتّب ما كان يقع خارج القبور، لاسيما الزهور والبيوتات الصغيرة؛ فإنه قد منح الصدفة الجنونية المنفلتة مغزى ومعنى، وتصالح من هذا البلد، ونجح في ايجاد حالة من الانسجام معه، وطالما بقي الأمر هكذا؛

فإن الشخص الآخر، المقابل، سيكون مجافياً للحقّ، ويمكن أن يأتي اليوم الذي يشعر فيه -ذلك الآخر- بالتعب، فيستسلم. أثناء ذلك جهّز الغريب قبرين آخرين، فحدث وقتها حادث: إذ انطلقت أصوات وضحكات، وثمة عربة كانت عجلاتها تصرّ، وقد حُملت الى حافتها بالجثث، ويبدو أن بيبو الأبرص قد عثر على أتباع لمساعدته، فسارعوا بالهجوم على (الفيض) الذي طفحت به العربة بتفهم وسعار أعمى، وأخذوا يجرون هذا المحتضر أو ذاك، ممن يظهر مقاومة ما، ليلقوا به عبر السور الشجري في أرض المقبرة، ثم يتبعه آخر، فآخر. كان الغريب يواصل عمله بهدوء حتى ذلك الوقت، الى أن تدحرج تحت قدميه جسد فتاة شابة، عارية ومدماة، وقد عُبث بشعرها بعنف، فأطلق حفّار القبور تهديداً في الظلام. غير أن الفتيان السكارى لم يكونوا في وضع يسمح لهم بالتقيد بأمر، فكان بيبو الأبرص يبرز كل مرة، رافعاً جبهته المسطحة الى الأعلى، ثم يلقي بجسد عبر السياج، حتى تراكمت الجثث حول العامل النشيط، الشديد الصمت والثبات. جثث، فجثث، فجثث. وأصبحت المسحاة تشق الأرض بصعوبة وتثاقل، وبدا كما لو أن الموتى كانوا يضعون أيديهم على المسحاة، مظهرين تمنعاً ومقاومة. حينئذ توقف الغريب عن الحفر. كان العرق يسحّ من جبينه، وثمة شيء ما كان يعتمل في صدره، فتقدم من السور، وعندما ارتفع رأس بيبو الأبرص الدائري مرة ثانية، هوى عليه بالمسحاة، بخفقة يد واسعة، فشعر الغريب بأصابته الهدف. انظر هنا: لقد أصبحت المسحاة سوداء، مبللة، حالما سحبها، فرمى بها بعيداً على شكل قوس كبير، وخفّض جبينه، ثم خرج من بستانه، هكذا في آخر الليل: خرج رجلاً مندحراً مهزوماً، بعد أن جاء في وقت مبكّر؛ مبكّر تماماً.

من يوميات مالته لاوريدس بريغه

١١ سبتمبر، شارع تونيه

هكذا إذاً يأتي الناس ها هنا ليواصلوا الحياة، لكنني أعتقد أنهم يأتون ليغادروا الحياة. إنني طريدٌ منفي، ورأيتُ المصحّات. رأيت إنساناً ترنّح أولاً ثم انهار، فاجتمع الناس حوله، مما أراحني من رؤية النهاية. أبصرتُ امرأة حبلى تجرجر جسدها بمحاذاة حائط مرتفع دافيء، كانت تتحسسه أحياناً بيدها، كما لو أنها أرادت التأكد من أنها لم تزل بعد موجودةً في الحياة. نعم، انها لم تزل موجودة هنا. في الخلف؟

فتشت في خريطتي عن مستوصف الولادة، حسناً، إنها ستضع مولوداً، وهناك من سيساعدها في الأمر. وفيما بعد أتى شارع سان جاك، ثم مبنى كبير انتصبت عليه قبّة. وكشفت الخريطة أيضاً عن المستوصف العسكري، وهذا في الواقع ما لا أرغب في معرفته، لكن ذلك لا يضير شيئاً. بدأت الجادة تبعث الروائح من الجهات جميعها، فطفقت رائحة اليود ودهون البطاطس المقلية ورائحة الخوف؛ إن المدن كلها لها رائحة في الصيف. بعد ذلك لمحت منزلاً غريباً معتماً، لم يكن مرسوماً على الخريطة، بيد أن من الممكن قراءة رقعة على بابه: ملجأ ليلي. وقد ثبتت الى جانب المدخل قائمة اجور المبيت التي لم تكن مرتفعة.

وغير ذلك؟ ثمة طفل صغير في عربة اطفال متوقفة! كان بديناً مخضوضراً وعلى جبهته طفح جلدي بيّن، يبدو أنه قد تماثل للشفاء، فلم تعد البثور تؤلمه. كان نائماً، فاغر الفم، يستنشق صبغة اليود والبطاطس المفرقعة بالسمن والخوف. هكذا كان الأمر إذاً. المهم ان يواصل الانسان الحياة، كان هذا هو الأمر المهم.

إنني لا أستطيع أن أنام إلا عندما تكون النوافذ مشرعة، حيث تسير القطارات الكهربائية حثيثة متسارعة وترنُّ أجراسها في غرفتي، وتتخاطف المركبات من حولي، ثم ينصفق باب، وفي مكان ما أسمع صليل لوح زجاجي، يرتطم فتضحك قطعة كبيرة منه، بينما تكركر شظاياه الصغيرة. وفجأة كان ينطلق صخب عميق محاصر في الناحية الثانية، من داخل المنزل. أحد ما يصعد السلّم، يتقدّم ويتقدّم بلا انقطاع. حتى وصل إلى هنا، بل صار هنا منذ فترة طويلة، وبعد ذلك يمرّ، ثم يأتي الشارع مرّة أخرى. وهناك صبية تصرخ:

– أغلق فمك، لا أريد أكثر من . . .

ويندفع الترام متوتراً، مارقاً الى الأمام، مخترقاً كل شيء. أحد ما يصرخ، فهرع الناس، متخطين بعضهم. ثمة كلب كان ينبح، يا للفتنة: إنه كلب. في الفجر كان يُسمع صياح الديك حتى، وهذا شيء جميل بلا حدود. بعد ذلك أغفو على حين غفلة.

هذا ما يتعلق بالضجيج والاصوات، لكن كان هناك شيء آخر اشدّ رعباً من الصخب ألا وهو: الصمت.

أعتقد أن هناك لحظة توتر قصوى كانت تحلّ احياناً اثناء الحرائق الكبيرة، فيتدفق الماء ويهبط نحو الأسفل، ويتوقف رجال الأطفاء عن التسلّق، ويتوقف كلّ شيء عن الحركة. وفجأة كانت تتخلخل دعامة في الأعلى وتتزحزح بصمت، وينحني حائط شاهق استعرت خلفه النار، فيقف الناس جميعهم وينظرون عبر مناكبهم المرتفعة مقطّبي الوجوه، منكمشين بفعل الصدمة الرهيبة. هكذا كان الصمت هنا.

لقد تعلمت أن أرى، لكنني لا أعرف السرّ الذي جعل الأشياء تخترق أعماقي، ولا تلبث فيها حيث تكون النهاية. إن لي أغوار لا علم لي بها، وسيمضي كل شيء إليها في هذه اللحظات. كما أنني لا علم لي بما يحدث فيها.

كتبت اليوم رسالة، وخطر في ذهني حينها أنني لم أقض هنا سوى ثلاثة أسابيع، ويمكن أن تبدو الأسابيع الثلاثة يوماً واحداً في مكان آخر، في الريف مثلاً، لكنها هنا كانت بمثابة أعوام، لذلك؛ فإنني لا أريد أن أكتب رسالة.

لكن ما هذا الذي كان يدفعني الى تبليغ أحدٍ ما بأنني قد تغيّرت؟ وإذا ما تغيّرت حقاً، وأصبحت خلاف ذاك الذيٍ كنته قبلاً، بل شيئاً آخر مختلفاً، فسيكون واضحاً تماماً هو: إنني أضحيت بلا أصحاب أو معارف، ومن الصعب أن أكتب رسائل الى ناس غرباء لا يعرفونني.

هل نطقت قبل لحظة؟ هل قلت أنني تعلمت أن أرى؟ نعم، لابد أن أبدأ من تلك اللحظة. ومازال الأمر ليس جيداً تماماً، لكنني أريد الاستفادة من الوقت.

هو إن هناك وجوهاً كثيرة، فتلك قضية لم أفكّر بها قط؛ هناك قدر وافر من الناس، غير أن الوجوه تكون أكثر وفرة منهم، إذ ان كل واحد منهم كان يحمل وجوهاً عديدة. وثمة أناس كانوا قد حملوا وجوههم اعواماً طويلة، لكن الوجوه كانت تبلى وتستهلك وتتسخ وتمتلىء بالتجاعيد وتتسع مثل قفازات ارتداها المرء في رحلة طويلة. هناك بشر بسطاء مقتصدون لا يسعون الى تبديل وجوههم، حتى أنهم لم ينظفوها أو يجلوها مرّة واحدة، ثم أنهم كانوا يدعون أنها لم تزل جيدة على نحو كاف، فمن ذا الذي يستطيع أن يثبت العكس؟

والآن فقد انبثق السؤال التالي: إذا كانت للناس وجوهٌ كثيرة، فما الذي يفعلونه بالوجوه الأخرى؟ إنهم بلاشك سيرفعونها. ولابد أن يحملها أبناؤهم بدلاً منهم. لكن كان يحدث أحياناً أن تخرج كلابهم بوجوههم لتتجول بها، ولم لا؟ فالوجه هو الوجه.

كان هناك أيضاً بشر آخرون يرتدون وجوههم بتعجل رهيب، واحداً تلو الآخر، الى أن تبلى وتستهلك. في البدء كانوا يظنون أنهم

سيحملونها معهم الى الأبد، غير أنهم ما أن يصلوا الى سن الأربعين، حتى يتبيّنوا أنهم لم يحتفظوا إلا بوجه واحد أخير، وتلك في الواقع هي المأساة بعينها. إذ أنهم لم يعتادوا على الإعتناء بالوجوه، لذلك ترى وجههم الأخير يصاب بالعطب بعد ثمانية أيام، ويصبح مثقوباً في مواضع عديدة، ورقيقاً كما الورق. وشيئاً فشيئاً تظهر قاعدته، أي اللاوجه، فيطوفون بها.

لكن المرأة، نعم المرأة: لقد كانت مستغرقة في نفسها، واضعة وجهها فوق يديها. رأيت ذلك في منعطف جادة نوتردام دو شامب، فأخذت أخطو على مهل، تماماً مثلما أبصرتها، إذ أن على المرء أن لا يزعج الناس المساكين حين يفكرون، عسى أن يخطر في ذهنهم شيء ما.

كانت الجادة خالية، موحشة، أثار فراغها الضجر في الجادة نفسها، فسحب الضجر خطاي من تحت قدمي، وتجوّل بها كما لو أنها حذاء من خشب. ارتعبت المرأة، ثم استفاقت من استغراقها على نحو عاجل، لدرجة أن وجهها ظلّ عالقاً بيديها. فاستطعت أن ألمحه عندما رقد في شكلٍ مجوّف غائر. بذلتُ جهداً كبيراً لكي أثبت بصري على اليدين، لعلّي لا أبصر ما سيسقط منهما. إنني كنت أشعر بالرعب من رؤية الوجه من الداخل، إلا أن اشدّ ما كان يرعبني هو الرأس المنزوع الوجه، والذي يجعلني ارتجف خوفاً ورهبة. وعلى المرء أن يفعل شيئاً إزاء الخوف إذا ما سكنه ذات يوم. وسيكون بشعاً جداً إذا ما تعرض الإنسان هنا الى عارض ما، وإذا ما خطر في ذهن أحد أن يأخذني الى «أوتيل ديو» ؛ فإنني سوف انتهي هناك لا محالة.

كان هذا الفندق مريحاً تماماً وكثير الزبائن.

وفي الأسفل، كان من الصعب أن يقف المرء ليتأمل واجهة كاتدرائية باريس دون أن يتعرض الى خطر الدهس بعربة من العربات الكثيرة التي

كانت تقطع الميدان الفسيح باقصى قدر من السرعة. كانت هناك مركبات نقل صغيرة تقرع أجراسها على الدوام، وحتى دوق ساجان نفسه كان يضطر احياناً الى جذب لجام جواده حينما يبصر طفلاً صغيراً يحتضر، مصراً على الذهاب الى فندق اللّه؛ إذ أن المحتضرين يبدون حمقى عنيدون. وكانت باريس برمتها تتوقف إذا ما قدمت السيدة المهيبة بعربتها الى موضع معيّن في المدينة. وما يمكن ملاحظته هنا هو أن لهذه العربات الشيطانية الصغيرة نوافذ مصنوعة من زجاج غائم حليبي البياض على نحو مثير، يتيح رؤية سكرات الموت الأخاذة، وتكفي مخيلة امرأة بوابة لتصور ذلك. وإذا كانت للمرء قدرة أكبر على التخيّل يستطيع وضعها في إتجاهات مختلفة، فتصبح الإحتمالات حينئذ بلا حدود. لكنني رأيت أيضاً عربات مكشوفة؛ عربات مؤجرة مؤقتاً، كان غطاؤها مُزاحاً الى الوراء، تتقاضى الاجرة ذاتها: أي فرنكين أثنين لساعة الموت الواحدة.

كان هذا الفندق الرائع قديماً جداً؛ وكان الناس فيه يفارقون الحياة ممددين على بضعة أسرّة في عهد الملك كلودفيغ، أمّا اليوم؛ فإن عملية الموت تنجز بخمسمائة وتسعة وخمسين سريراً، حسب نظام القطعة بطبيعة الحال. وفي ظل إنتاجية عالية كتلك، فإن الموت الفردي لا يتحقق على نحو جيد، لكن الأمر لا يتوقف كثيراً على هذه المسألة، إنما على الكمية وحدها، فمن ذا الذي يقدم اليوم على دفع ثمن مناسب بغية الحصول على موت مصنوع بصورة جيدة؟

لا أحد، لا أحد. وحتى الأغنياء الذين كان في وسعهم أن يموتوا موتاً تفصيلياً مهيباً أصبحوا الآن مهملين غير مبالين، وباتت رغبة الحصول على موت فردي خاص تزداد يوماً بعد آخر، وستصبح بعد زمن قصير أشد ندرةً من الحياة الفردية نفسها.

ياإلهي! أن الاشياء كلها كانت متوفرة هنا، حيث يأتي المرء ويجد

الحياة جاهزة، وما عليه الا أن يرتديها. وإذا أراد المرء الرحيل أو البقاء مجبراً؛ فإن ذلك لم يكن ضرورياً، إذ ليس هناك أي مبرر للأسراف في الإجتهاد:

- تفضل! هذا هو موتك أيها السيّد!

إن المرء يموت عادةً حسبما يقتضي الأمر، وينال الموت المرتبط بالمرض ذاته الذي أصيب به، (منذ أن عرف الإنسان طبيعة الأمراض بات واضحاً أن النهايات المهلكة كانت مرتبطة، على الرغم من اختلافاتها، بالمرض وحده وليس بالناس، ويمكن القول إن المريض لا علاقة له بالأمر).

أمّا في المصحات، حيث كان المرء يتوفى عن طيب خاطر معترفاً بجميل الاطباء والممرضات، فإنه كان يتوفى بأحد أنواع الوفيات الموظفة في المصح، وتلك قضية كان ينظر اليها عادة بعين الرضا.

وإذا ما توفي المرء في داره، فيكون من الطبيعي أنه قد اختار الموت اللطيف الملائم لطبقته المحترمة، أي الموت الذي كان يبدأ بمراسيم التشييع الفخمة مع كل ما يترتب عليها من طقوس رائعة، فيقف الفقراء أمام ذلك المنزل ويمتعون أبصارهم بالمشهد؛ إذ أن موتهم بطبيعة الحال لم ذا شأن؛ لأنه موت خال من أي مبالغة أو تعقيد، فهم يكونون سعداء إذا ما عثروا على موت واحد مناسب الى حد ما، يكون على الأقل واسعاً؛ لأن المرء سوف ينمو باستمرار داخل موتِه. لكن إذا كان الموت مفصلاً على نحوٍ ضيّق أو قصير، فستكون تلك هي حالة العوز بعينها.

وبما أنني أفكر الآن في أهلي الذين لم يبق منهم أحد في هذه الدنيا، فقد انتابني شعور بأن الموت كان زماناً مختلفاً عما أصبح عليه اليوم.

ربما كان المرء يشعر، بأنه حمل الموت في داخله، مثلما تحمل الثمرة النواة، فالموت الصغير كان للأطفال والموت الكبير للبالغين.

والنساء كنّ يحملنه في ارحامهن، والرجال كان في صدورهم. إن المرء يحمل الموت في داخله ابداً، مما يمنحه قدراً كبيراً من الرفعة وإحساساً فريداً بالفخر والكبرياء.

زماناً كنا نرى جدنا العجوز بريغه، رئيس تشريفات الديوان الأميري وهو يحمل موته في داخله؛ وأي موت هذا الذي كان يحمله! كنا نسمع صوت الموت المدوّي في فناء المقاطعة الواسعة طوال شهرين كاملين، حتى أن المنزل الكبير قد أصبح صغيراً جداً بالنسبة لموت من ذلك النوع. بدا وكأن علينا أن نشيد الموت له اجنحة اضافية؛ أنه كان يتسع ويمتد، فكان يطلب منّا أن ننقله الى أماكن اخرى، وكان ينتابه غضب رهيب إذا ما رأى النهار يوشك على الانتهاء، ولم تعد هناك غرفة واحدة إلا وكان قد رقد فيها. كان يأتي بعد ذلك موكب الخدم، والشغالات، والكلاب التي كانت تحيط به دوماً، فيصعد هؤلاء السلّم، يتقدمهم رئيس الخدم، ليضعوا الجد في الغرفة التي توفيت فيها أمّه العزيزة، الجليلة الشأن، تلك الغرفة التي بقيت على حالتها تماماً، مثلماً غادرتها الأم قبل ثلاثة وعشرين عاماً، والتي لم يجرؤ أحد على الدخول إليها.

كان الموكب كلّه قد اجتمع آنذاك، فازيحت الستائر عن النوافذ ودخل ضوء ساطع لنهار الصيف بالغ القسوة، وتفحّص الموجودات المترددة المروعة، ثم التفت على نحو غير ماهر الى المرايا المكشوفة. كان الناس أنفسهم يفعلون ذلك أيضاً، ومن فرط الفضول لم تعد الخادمات يعلمن أين وضعن أيديهن في تلك اللحظة، وكان هناك مساعدون شباب أخذوا يمعنون النظر في كل شيء، وأيضاً خدم قدماء كانوا تجولون في المكان، لعلّهم يتذكرون مارواه لهم الآخرون من أحداث قد وقعت في هذه الغرفة الموصدة التي دخلوا آنذاك فرحين سعداء.

بدا هذا المكان، الذي كانت محتوياته تبعث رائحة لاذعة، مثيراً

للكلاب على نحو خاص، فكانت الكلاب السلوقية الروسية تطوف حول الكراسي ذات المساند المرتفعة، وتقطع الغرفة بخطوات واسعة راقصة، ومتمايلة، وترفع براثنها النحيفة تماماً مثلما تفعل الكلاب المرسومة على الشعارات، لتسندها الى افريز الشباك الأبيض الذهبي، وتتطلع عبر فناء المنزل يميناً وشمالاً، تلك الكلاب ذات الوجوه المدببة والجباه الململمة المنكمشة. كانت هناك أيضاً كلاب صغيرة صفراء، صفرة القفاز الجلدي، تهجع عادة في المقعد الرحب العريض المنجّد بالحرير قرب النافذة، تهجع وتبدو وجوهها ساكنة كما لو أن كل شيء كان على ما يرام، وكان ثمة كلب آخر، قنّاص دجاج متجهم الهيئة، ذو شعر أجعد، منكوش، يحك ظهره دائماً بحافة طاولة مذهبة القوائم، فترتجف على سطحها، الذي نقشت عليه رسوم زيتية، فناجين من الخزف الصيني الفاخر.

نعم؛ لقد كان زمناً مرعباً ورهيباً بالنسبة لتلك الاشياء التي كانت غارقة في النوم بينما كانت روحها غائبة. كان يحدث احياناً أن تتهادى وريقات زهور سقطت من كتب، بعد أن عبثت بها يد متعجلة، فتسحقها الأقدام. ثمة حاجيات صغيرة هشة كانت تتحطم حالما يمسك بها المرء، ثم سرعان ما يُطرح حطامها جانباً، أو يخفى خلف الستائر، أو يلقى به وراء شراك الموقد المذهّب. وكان يسقط من وقت لآخر شيء ما، مغلّف، على السجاد المفروش؛ يسقط أحياناً مجلجلاً على الأرضية الخشبية الصلدة، فتتناثر شظاياه هنا وهناك؛ ثم تقفز حادة مرهفة، أو تنكسر ثانية دون جلبة؛ إذ أن الاشياء تلك، مثلما كان طبعها، لا تتحمل السقوط.

واذا ما خطر في ذهن أحد أن يسأل عن سبب الدمار الفادح الذي حلّ في تلك الغرفة المحصنّة بالخوف؛ فإن هناك جواباً واحداً كان ينتظره: إنه الموت.

كان ذلك هو موت رئيس التشريفات كرستوف دتلف بريغه، صاحب اقطاعية اولزغارد. لقد رقد هذا الرجل الذي كان جثمانه أكبر حجماً من قيافته الرسمية العميقة الزرقة في منتصف الأرضية، وظلّ ساكناً هامداً، وكانت عيناه مطبقتين في الوجه الكبير الذي صار مجهولاً تماماً بالنسبة للآخرين، ولم يعد يعلم بما كان يجري حوله. في البدء، حاولوا أن يضعوه على السرير، إلا أنه اعترض بشدّة؛ إذ انه كان يكره الأسرّة منذ الليالي الأولى التي نما فيها الداء، فضلاً عن أن سريره الخاص بدا صغيراً جداً، لذلك لم يبق أمامهم سوى أن يضعوه على السجّادة، بعد أن رفض النزول الى أسفل المنزل.

وظل الرجل ممدداً هناك زمناً طويلاً، ويحق للمرء الاعتقاد بأنه قد فارق الحياة. وعندما حلّ الغروب، انصرفت الكلاب من شقٍّ في الباب، واحداً تلو الآخر، ولم يبق سوى الكلب ذو الشعر الأكرت الخشن الذي كان جالساً الى جانب سيّده، واضعاً مقدمة اطرافه المفلطحة، المشعثة الشعر، على يد كرستوف دتلف الرمادية المتينة. ثم خرج معظم الخدم، وظلوا واقفين في الممر الذي كان أقل حلكة من الغرفة؛ أمّا أولئك الذين كانوا يفضلون البقاء في الداخل، فقد كانوا يختلسون النظر الى تلك الكومة العظيمة المعتمة الملقاة في منتصف الغرفة، ويتمنون لو أنها لم تكن أكثر من بذلة واسعة رُميّ بها على شيء فاسد مهترئ.

لكن كان هناك شيء آخر، كان هناك صوت مدوّ؛ صوت لم يكن قد عرفه أحد قبل سبعة اسابيع: إلا أنه لم يكن صوت السيد رئيس التشريفات، كلا، إنما كان صوت موت كرستوف دتلف بريغه.

لقد واصل موت كرستوف دتلف الحياة بضعة أيّام أخرى في مقاطعة اولزغارد، وكان يتحدث الى الجميع ويأمر، فأمر بأن يُحمل وأمر باعداد الحجرة الزرقاء، وأمر بتجهيز الصالون الصغير، وأمر بالصالة، وأمر بالكلاب، وأمر الناس بأن تضحك، ثم أمرهم بأن يتحدثوا وأن يلعبوا.

ثم أمرهم بالصمت، وذلك كله في وقت واحد، وأمر أن يأتي اليه بأصحابه القدماء، أمرهم باحضار النساء والامدادات، أمر بأن يموت هو نفسه: كان يأمر ويأمرُ ويستغيث.

وإذا ما جنّ الليل، وحاول بعض الخدم المعفيين من نوبة الحراسة أن يضعوا رؤوسهم على الفراش؛ فإن موت كرستوف دتلف يصرخ في تلك اللحظة، ويزفر من الأعماق، ثم يصرخ من جديد، ويواصل صراخه فترة طويلة، لدرجة أن الكلاب، التي بدأت تصرخ معه، كانت تضطر الى الصمت بفعل حدّة الصراخ، ولم تعد تجرؤ على الإستلقاء، بل كانت تقف منتصبةً على سيقانها الطويلة، النحيفة، والمرتجفة من الرعب. وإذا ما سُمع صراخ موت دتلف في أنحاء القرية، مخترقاً ليل الصيف الدنماركي الفضيّ البعيد؛ فإن أهل القرية كانوا يهبون فزعين من نومهم، مثلما كانوا يفعلون عادة اثناء الرعود والأعاصير، فيرتدون ثيابهم على عجل، ويجلسون حول القناديل والفوانيس دون أن ينطقوا بكلمة واحدة، الى أن يختفي أثر الصراخ. وأمّا النساء اللواتي كنّ على وشك الولادة؛ النساء اللواتي كن يقيمن بالقرب من مصدر الصوت، فقد كن يبعدن الى غرف معزولة، فيها أسرّة خشبية بالغة المتانة، الا أنهن، على الرغم من ذلك، يسمعن صراخ الموت، كما لو أنه كان يخرج من أحشائهن، فيتوسلن بأن يسمح لهن بمغادرة الاسرة، فيأتين بيضاوات الوجوه، ممتلئات الأجساد، ويجلسن الى جانب الساهرين بوجوههم الممسوحة المطموسة المعالم. وكذلك كانت الأبقار التي تلد في هذا الوقت تبدو يائسةً، عاجزةً ومنكفئةً على نفسها. وقد اقتلع أحد الرجال أحشاء بقرة عندما أخرج من رحمها الجنينَ الميّت، بعدما أدرك أن الثمرة لا تريد الخروج. وأصبح الناس كلهم يشتغلون على نحو سيء، وينسون أن يجلبوا الحشائش والأعلاف؛ لأنهم كانوا، في النهار، يخشون قدوم الليل؛ ولأنهم باتوا منهكين مرهقين تماماً

بفعل الأرق والاستيقاظ المفزع المخيف، حتى أنهم ما عادوا يتذكرون شيئاً. وإذا ما ذهبوا الى الكنيسة البيضاء الآمنة؛ فإنهم كانوا يصلون لاجل أن لايأتي سيّد آخر الى اولزغارد؛ إذ أن هذا السيد كان مرعباً رهيباً. وقد عبّر القسيس صراحة عن جميع تلك الأفكار التي دارت في أذهانهم، أو التي صلّوا لأجلها، وقد أعلنها من المنبر الكنسي؛ لأنه هو أيضاً، لم ينم لياليه، ولم يعد يعرف أين صار ربّه. وحتى ناقوس الكنيسة نفسه اعترف بذلك، بعدما أصبح الصراخ خصماً غريماً له، يدوّي طوال الليل، بحيث لم يعد الناقوس قادراً على مجاراته، على الرغم من أنه كان مصنوعاً من المعدن. نعم؛ لقد كان الجميع يعترف بذلك، وكان ثمة فتى يافع من بينهم قد حلم ذات مرّة بأنه دخل الى القصر وأجهز على السيد بالمذراة. فبدا الحاضرون، الذين أنصتوا اليه عندما روى حلمه، متوترين، مرهقين، وفي غاية الإنفعال، ثم أخذوا يتفحصون ملامح الفتى بلا وعي، ليتأكدوا فيما إذا كان جديراً بتنفيذ عمل كهذا الذي ادعاه.

كان الناس يشعرون بذلك ويتحدثون عنه في تلك الناحية البعيدة، التي كان الناس فيها قبل بضعة أسابيع، يكنّون الحب والاحترام لرئيس التشريفات، ويظهرون له أكبر قدر من المواساة. لكن، وعلى الرغم من أنهم كانوا يتحدثون على هذا النحو؛ فإن الأمر لم يتغيّر قط؛ إذ أن موت كرستوف دتلف، الذي كان يعيش في اولزغارد، لم يدع أحداً يزاحمه أو يقهره. لقد حلّ عشرة أسابيع، أمضاها كاملة. وطوال ذلك الوقت كان سيّداً حقيقياً أكثر بكثير مما كان عليه في حياته؛ كان موته كالملك الذي اضطر المرء أن يطلق عليه أخيراً لقب «الملك الرهيب» مرّة واحدة والى الأبد.

انه لم يكن موت شخص ما، كان مصاباً بالإستسقاء، بل كان موتاً خبيثاً، مسرفاً، ذلك الذي حمله رئيس التشريفات في داخله طوال

حياته وغذّاه من روحه. لقد تسربت الإرادة والرجولة والكبرياء، تلك التي لم يستنفذها في أيامه الهادئة، تسربت منها الى موته وتداخلت به، ذلك الموت الذي قبع في مقاطعة اولزغارد وبدد وقته عبثاً وسدى.

وكيف كان بريغه الإقطاعي النبيل سينظر الى ذلك الشخص الذي يطلب منه الوفاة بموت آخر غير ذلك الموت؟

لقد توفي السيد بريغه إذاً بموته الصعب الثقيل.

لكنني عندما أفكر الآن في أنماط الموت الأخرى التي رأيتها، أو سمعت بها؛ فإن الأمر لا يكون مختلفاً كثيراً عن موت بريغه.

كان لأولئك الناس موت فردي، خاص بهم. وكان الرجال يحملونه في صدورهم، ويحتفظون به هكذا غائراً في أعماقهم، كما لو أنهم كانوا يحملون سجيناً. كذلك كانت النساء اللواتي أصبحن اليوم عجائز هرمات صغار الحجم، لكي يرحلن فيما بعد على نحو أرستقراطي، وهن راقدات على سرير هائل يشبه منصة المسرح؛ يرحلن أمام أنظار ذويهن بكل سريّة وكتمان، بعيداً عن عيون الخدم والكلاب. نعم؛ حتى الأطفال؛ الأطفال الصغار جداً، فإنهم لم يحملوا موتاً غير محدد، إنما كانوا يجمعون قواهم كلها، ليموتوا بالشيء ذاته الذي كانوا عليه، أو بذلك الذي سيصيرون اليه.

فما هو ذلك الشيء الذي كان يمنح النساء قدراً من الجمال الحزين الكئيب، عندما يحملن، ويعقدن أيديهن النحيلة على بطونهن الكبيرة على نحو غير طبيعي، إنْ لم يكن ثمرتين: هما الطفل والموت؟

أم تنبع الإبتسامة الكثيفة، الممتعة، التي كانت ترتسم على وجوههن الجليّة الطاهرة من إيمانهن بأن الطفل لا بد ينمو ويترعرع سوياً مع الموت؟

وها أنذا الآن قد فعلت شيئاً إزاء الخوف، وأمضيت الليلة كلها في الكتابة، حتى أصبحتُ مجهداً متعباً، كما لو أنني قطعت الطريق

البعيد الذي كان يمرّ عبر حقول اولزغارد. بلا شك أن من الصعب عليّ التفكير في أن كل شيء لم يعد مثلما كان عليه زماناً، وان هناك ناساً غرباء حلّوا في القصر الكبير القديم. ومن المحتمل أيضاً ان الخادمات يغطنّ الآن، تحت السقف المائل في الغرفة البيضاء، في نومٍ ثقيل رطب من المساء حتى الصباح.

لكن الإنسان دائماً مايكون وحيداً مهجوراً، يتجول في هذا العالم بحقيبة وصندوق كتب، خالياً من أي رغبة أو فضول! فأيّ حياة هذه: إذ لا بيت ولا ميراث ولا كلاب؟ لو أن الانسان يستطيع أن يحمل معه ذكرياته على الأقل! لكن أين هو هذا الإنسان الذي يفعل ذلك اليوم؟ آه؛ لو تأتي الطفولة ها هنا، غير أنها سوف تبقى مدفونة ابداً. وربما على الانسان أن يتقدّم كثيراً في السن، ويصبح عجوزاً، قبل أن يبلغ مراده كلّه؛ وإنني أعتقد أن بلوغ الشيخوخة والكبر أمر جيد.

لقد عشت اليوم صباحاً خريفياً ممتعاً، ومضيت باتجاه قصر «التولري» الملكي. وبدا ما كان واقعاً الى جهة الشرق مشمساً مثلما كانت الشمس، وإمّا المرئي منه فقد كان ملفوفاً برقائق الشمس الرمادية المشرفة على الحديقة والتي لم تتكشف معالمها بعد. رأيت بضع زهور منفردة كانت تستكن في بويتاتها الصغيرة، يقظة وتنطق بصوت مذعور: أحمر، أحمر. لقد رأيت رجلاً فارعاً نحيفاً، قدمَ من ناحية قصر الأليزيه، وكان يحمل عكازة، الا أنه لم يضعها تحت إبطه، بل كان يتكأ عليها من الأمام ويسير بخطى خفيفة – كان يضرب عصاه في الأرض، فتصدر رنيناً عالياً كما لو أنها عصاة الحاجب المنادي في بلاط الملك. لم يخف الرجل إبتسامة فرح كانت قد ارتسمت على وجهه، فكان يبتسم ويطيل الابتسام للشمس وللزهور، يبتسم بينما كانت خطاه مرتبكة، مضطربة، مثل خطى الاطفال، الا أنها كانت خفيفة، حرّة على نحو غير مألوف، مليئة بذكريات المشي القديم.

لكن ما هذا كله الذي كان يصنعه قمرٌ وحيد صغير!

كانت الأيام تغمر المرء بنورها الباهر، فيصبح خفيفاً طلقاً، وكان هذا النور، الذي لايكاد يظهر في الهواء الساطع المتوهج، واضحاً، جليّاً على الرغم من ستارة الضباب. وما كان يقع وراء ذلك كان مذاقه مثل مذاق الغربة والفراق، فيعرض نفسه عن بعد لكنه لم يمنحها الى أحد. وكان البعد قد انتشل كلَّ ما كان له علاقة بالمسافة، كالنهر والجسور والشوارع الطويلة والساحات، التي كانت تتلاشى وتختفي، ووضعه وراءه، فبدت الأشياء كلها مرسومة في البعد كما الرسم على الحرير. وأصبح من الصعب أن يوصف ذلك التحوّل التي ستصير اليه العربة الخضراء الضوء الواقف على الجسر الجديد، أو ذاك الاحمرار الذي لا يمكن الإمساك به، أو حتى الاعلان الذي كان ملصقاً على الحيطان النارية المتوهجة للمنازل التي كانت تتلألأ رمادية.

كان كل شيء مبسّطاً، قائماً على بضع قواعد مستوية، وعلى مسطحات ساطعة الإنارة كما الوجه في لوحة لـ «مانيه». لم يكن هناك ما يمكن اعتباره عديم الأهمية أو زائداً عن اللزوم. وكان يمكن رؤية باعة الكتب وهم يفتحون صناديقهم على رصيف المرفأ، فتنكشف صفرة الكتب المستعملة الرطبة، أو الطازجة الجديدة باغلفتها البنية البنفسجية، وكذلك الاخضرار العميق لمحفظة أوراق. كانت تلك لأشياء تعرض نفسها بصدق وصراحة، وتبدو ذات قيمة وحضور كاملين، وتشكل مع تلك الأشياء وحدةً تامة خالية من أي نقص. وفي الأسفل كان يمكن رؤية التوليفة التالية: عربة يدوية صغيرة، تدفعها امرأة، وفي مقدمتها أرغن صغير، وضع على نحوٍ طولي، وفي الخلف ثمة سلّة أطفال إنتصبت على نحو عرضيّ وقد وقف فيها صبي بدا عليه الفرح تحت قلنسوته الصغيرة، يبدو أنه لم يكن راغباً في الجلوس، ومن وقت لآخر كانت المرأة تدير صندوق الأرغن، فينتفض الصبي،

ويستقيم حالاً في سلته، وترقص صبيّة صغيرة بثياب الأحد الخضراء، ثم تنقر الدفّ بمواجهة النوافذ.

أعتقد أن عليّ أن أبدأ في العمل الآن؛ إذ أنني تعلمت أن أرى. لقد بلغت الثامنة والعشرين، لكن لم يحدث في حياتي شيء ذو شأن. دعني أعيد الموضوع من جديد: لقد كتبت دراسة عن النحّات كارتشيو، فكانت دراسةً سيئة، وكتبت مسرحية عنوانها «الزواج»، أردت فيها البرهنة على وجود خطأ ما في الأمر، مستخدماً وسائل ملتبسة المعنى، وكتبت كذلك قصائد. لكن القصائد تكون عادة عديمة القيمة والجدوى، إذا ما كتبت في زمن مبكر. فعلى المرء أن يتريث في كتابة القصائد الى أن يجتمع لديه المعنى وجمالية الإحساس، وذلك طوال حياته، أو خلال فترة طويلة جداً، وبعد ذلك، أي في لحظات النضج الأخيرة، ربما يستطيع أن يكتب عشرة أبيات جيّدة؛ إذ أن القصائد ليست مجرد مشاعر، حسبما يعتقد الناس، (فالمشاعر يحملها الإنسان معه منذ الطفولة)، بل أنها تجارب وخبرات عملية.

ولكي يكتب المرء قصيدة جيّدة عليه أولاً أن يرى مدناً كثيرة ويتعرف على الناس والأشياء والحيوانات، ويشعر كيف تحلّق الطيور، ويدرك الحركات الدقيقة التي تتفتح عبرها الزهور الصغيرة في ساعات الصباح. وعلى المرء أن يكون قادراً على إستعادة وتمثّل الشوارع والدروب في جميع النواحي القصيّة المجهولة، وأن يتمثل اللقاءات والإفتراقات غير المنتظرة، تلك التي رآها منذ زمن بعيد، وأن يتذكر أيام الطفولة التي لم تتضح معانيها بعد، وأن يتذكر والديه اللذين كان يسيء اليهما ويزعجهما كلما رآهما يدخلان الفرح الى نفس انسان آخر سواه (إذ أن تلك كانت مجرد فرحة للآخرين)؛ وعلى المرء أن يتذكر أمراض الطفولة التي كانت تبرز على نحو عجيب عبر تحولاتها ونتائجها العديدة العميقة والخطرة، وأن يتذكر أيام الصمت

والسكينة والإنتظار في الغرف المتطامنة الصامتة وأن يتذكر الصباحات عند ساحل البحر، وأن يفكر في البحر على نحو خاص، في البحار عموماً، وفي ليالي الأسفار التي تسمو نشوتها، عالياً الى أن تلامس النجوم والكواكب النائية – ومع ذلك؛ فإن تلك الاشياء كلها ليست كافية لكتابة القصيدة.

إذ أن على المرء أن تكون له ذكريات عن ليالي حبّ حمراء، لا تشبه فيها الليلةُ الأخرى، وعن صرخات المخاض والوضع والنساء النفساوات البيضاوات الملمومات الى بعضهن. وعلى المرء أن يكون قد جلس لحظات قرب المحتضرين، وسهر الى جانب الموتى في حجرة بنافذة مشرعة، كانت تتردد فيها أصوات متناوبة. ولا يكفي أن تكون للمرء ذكريات، بل يجب عليه أن يكون قادراً على نسيانها، إنْ كانت كثيرة، وأن يكون على قدر كبير من الصبر، لإستحضارها من جديد؛ لأنها لم تتحول بعد الى ذكريات. حينئذ فقط، أي عندما تتحول تلك الاشياء الى دم يسري في عروقنا والى حركة بلا اسم، ويصعب التفريق بينها وبين أنفسنا، حينئذ فقط، يمكن أن تنشأ الكلمة الأولى للقصيدة، وذلك في ساعة غريبة نادرة، فتنتصب تلك الكلمة في قلب الذكريات، لتنطلق من هناك.

إلا أن قصائدي كلها نشأت على نحو مغاير لذلك، فهي إذاً ليست بشعر. وبعدما كتبت مسرحية درامية أدركت كم كنت مخطئاً. فهل كنتُ مقلداً أحمق، يحتاج الى معونة شخص ثالث، لكي يروي مصير شخصين، كان أحدهما يحاول أن يحطم الآخر؟ كم كان سقوطي في الفخ سهلاً! كان حريّاً بي أن أعرف أن هذا الوسيط الثالث الذي كان يتجوّل عبر الحياة والآداب معاً، هذا الشبح الذي لم يكن يوماً موجوداً أبداً، ليس له أدنى ضرورة أو معنى، وعلى المرء أن يتنكر له تماماً. إنه ينتمي الى اغراءات الطبيعة التي تسعى دائماً الى الهاء الناس وصرف

انتباههم من خلال كشفها لاسرارها الدفينة البالغة العمق. أن هذا الوسيط كان الستار الذي جرت وراءه احداث المسرحية. وكان هو نفسه الصخب والضجيج في المدخل الصامت للأزمة الحقيقية. إن المرء يميل الى الإعتقاد بأن الناس كلهم يجدون صعوبة كبيرة في الحديث عن الشخص الثاني الذي يتعلق به الأمر. وبما أن الوسيط الثالث وهمٌ عار عن كل حقيقته فأن مهمة تناوله تبدو سهلة للغاية؛ إذ أن جميع الناس يعرفونه. ومنذ بداية المسرحية كان المرء يلاحظ القلقَ الذي كان يطغي على ترقبهم للشخص الثالث، بحيث أنهم كانوا بالكاد يستطيعون إنتظاره. وحالما يظهر يصبح كل شيء على ما يُرام. وكم يبدو المشهد مملاً إذا ما تأخر ظهوره؛ لأن لا شيء سيكون ذا قيمة بدونه، وسيتوقف كل شيء ويتعثر منتظراً اطلالة الشخص الثالث. نعم؛ وكيف لو استمر ذلك التوقف والتعثر؟ كيف إذاً أيها السيّد المسرحي، وأنت أيها الجمهور الذي خبر الحياة، كيف لو غاب هذا الوسيط العزيز المنغمس بالملذات، أو ذلك الإنسان الفتيّ الذي يصلح لعقد جميع القرانات مثل مفتاح احتياطي؟ ما الذي سيحدث لو أخذه الشيطان مثلاً؟ دعونا نفترض ذلك على الأقل؟ آنذاك سيكتشف المشاهد خواء المسرح المصطنع، وسيبدو له كل شيء مسوّراً ومحاطاً بالثقوب الخطيرة، حيث تتهاوى العشث وحدها من مقصوراتها الأثيرة في المكان المجوّف الواه.

وحينئذ لم يعد المسرحيون يقيمون في قصورهم الفارهة، مستمتعين هانئين، إنما ستبعث لهم مراعاتهم للجمهور ذلك الوسيط غير القابل للتعويض والذي يشكل ذروة الموضوع. بذلك سوف يعود الى الحياة ليس هذا الشخص الثالث الى الحياة، إنما الشخصان الآخران اللذان يمكن أن يُقال عنهما الكثير على نحو منقطع النظير؛ هذان الشخصان اللذان لم يجر الحديث عنهما قط، على الرغم من أنهما كانا

يعانيان كثيراً ويحاولان الخروج من أزمتهما، لكن دون جدوى؛ إن هذا لأمر مثير للسخرية حقاً.

إنني أقبع هنا في غرفتي الصغيرة، أنا بريغه، ذو الثمانية والعشرين عاماً، والذي لم يسمع بوجوده أحد؛ أقبع هنا وأنا في الحقيقة لست أكثر من عدم. ومع ذلك؛ فإن هذا العدم بدأ يفكر الآن، يفكر وهو على ارتفاع خمسة سلالم، هنا، في هذا المكان، ذات نهار باريسي رمادي كالح، أخذ العدم يفكر على النحو التالي:

فهل من الممكن، حسب اعتقاد المرء، أن الإنسان لم يرَ الى الآن كل ما هو حقيقي وضروري، ولم يكن قد أدرك ذلك أو تحدث عنه؟ وهل يمكن أن تكون للإنسان آلاف الأعوام من الرؤية والتأمل والتدوين، ثم يبددها مثلما يبدد التلميذ فرصة الإستراحة في قضم تفاحة؟

نعم؛ أن ذلك ممكن.

وهل بمقدور الإنسان أن يبقى عالقاً، مترسباً، فوق سطح الحياة على الرغم من التقدّم والإختراعات والدين والثقافة والحكمة الشاملة؟ وهل يمكن أن تكون حتى هذه الأرضية المسطحة للحياة، قد كُسيت بخامة مضجرة على نحو لا يصدق؛ خامة كأنها أثاث غرفة في رحلة صيفية؟

نعم؛ أن ذلك ممكن.

وهل يمكن أن يكون تاريخ العالم كله قد أُسيء فهمه؟ وأن يكون الماضي نفسه خطأً؛ لأن المرء قد تحدث عنه كما لو أنه تحدث عن جموع بشرية، أو عن تيار واحد مشترك لبشر كثيرين، بدلاً من التحدث عن الإنسان الفرد الذي يحيط به البشر من جميع الجهات، لمجرد أن هذا الإنسان كان فرداً غريباً وقد أحاط به الناس قبل أن يفارق الحياة؟

نعم؛ أن ذلك ممكن.

وهل يعتقد الإنسان أن عليه اللحاق بالأحداث التي سبقت ولادته، وأن يتذكر كل فرد عاش معه، متصوراً أن ذلك الفرد يعود الى أولئك البشر الماضين، وأنه كان يعلم بذلك، لكنه لم يكن يسمح لأحد بأن يقنعه أو يوهمه بوجود الآخرين الذين كانوا يعلمون أشياءً غير تلك التي كان يعرفها؟

نعم؛ أن ذلك ممكن.

وهل يمكن أن يعرف هؤلاء الناس زمناً ماضياً دون أن يكون موجوداً، لكنهم كانوا يعرفونه تماماً ويدركونه بدقة متناهية؟ وهل يمكن أن تكون الحقائق كلها لا تعني شيئاً لهم، وأن حياتهم كانت تسير متحررة من أي ارتباط وتدور كما تدور عقارب الساعة في غرفة فارغة؟

نعم؛ أن ذلك ممكن.

هل يمكن أن يكون الإنسان يجهل وجود الفتيات اللواتي كن احياءً؟ وأن يتحدث الإنسان، على الرغم من ثقافته، عن «النساء» و «الأطفال» و «الصبيان» دون أن يعلم بأن تلك المفردات ليس لها صيغة جمع، بل هي مفردات كثيرة لاتحصى؟

نعم؛ أن ذلك ممكن.

وهل كان هناك بشر يخاطبون «اللّه» ويظنون أنهم كانوا يخاطبون شيئاً مشتركاً؟

والآن أنظر الى تلميذين صغيرين، ابتاع أحدهما سكيناً وفعل الآخر مثله في اليوم ذاته، وبعد مضي أسبوع واحد أظهر كل منهما سكينه الى الآخر؛ فلاحظ المرء أن السكينتين كانت متشابهتين، لكن عن بُعد، إذاً انهما كانتا في الواقع مختلفتان عن بعضهما؛ لأنهما قد تطورتا في

أيد مختلفة. (فتخاطب أمّ أحد الصبيين: نعم، إذا كان لا بد من استخدامهما حالاً -؟) بلى؛ وهل يعقل أن يكون للإنسان ربّ دون أن يكون بحاجة اليه؟

نعم؛ أن ذلك ممكن.

فإذا كان ذلك كله ممكناً، حتى إنْ كانت إمكانية حدوثه ضئيلة للغاية، فلا بد حينئذ من حدوث شيء ما في هذا العالم. وعلى هذا الإنسان الذي دارت في رأسه هذه الفكرة المثيرة للقلق أن يفعل شيئاً حيال التقصير والمهادنة، حتى لو كان مجرد شخص مغمور، ليس بالضرورة الأكثر قدرة وكفاءة، لكن ليس هناك أحد سواه. إن هذا الفتى اليافع، الأجنبي، العديم الأهمية، بريغه، الذي يقبع في الطابق الخامس ويدون يومياته ليلاً ونهاراً، لابد له من أن يواصل الكتابة، وستكون تلك هي النهاية.

الفهرست




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد عرف الأدب الألماني الحديث راينر ماريا ريلكه (١٨٧٥-١٩٢٦) شاعراً منذ مطلع القرن العشرين، وأصبحت هذه الصفة ملازمةً له، لدرجة أن الشعر الألماني المعاصر برمته قد اقترن باسمه، وبات من الصعب اضافة صفة أخرى الى ريلكه غير صفة الشعر. بيد أن حقيقة الأمر هي أن ريلكه، قبل وأثناء انشغاله بكتابة الشعر، كان قاصاً وناثراً متميزاً، ومازالت كتاباته القصصية والروائية تحظى باهتمام، ولو كان غير متكافيء مع إنجازه النثري، لكنه يتزايد على الدوام.

